

العنوان:	رسائل ابن حزم الاندلسي : دراسة تحليلية
المؤلف الرئيسي:	عقيلان، تميم أحمد
مؤلفين آخرين:	خريوش، حسين يوسف(مشرف)
التاريخ الميلادي:	1994
موقع:	اربد
الصفحات:	1 - 207
رقم MD:	720493
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة اليرموك
الكلية:	كلية الآداب
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، ت 456 هـ ، التراجم، الرسائل التاريخية، النقد الادبي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/720493

للاستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب أسلوب الاستشهاد المطلوب:

أسلوب APA

عقيلان، تميم أحمد، و خريوش، حسين يوسف. (1994). رسائل ابن حزم الاندلسي: دراسة تحليلية (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة اليرموك، اربد. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/720493>

أسلوب MLA

عقيلان، تميم أحمد، و حسين يوسف خريوش. "رسائل ابن حزم الاندلسي: دراسة تحليلية" رسالة ماجستير. جامعة اليرموك، اربد، 1994. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/720493>

الباب الثاني

ابن حزم والحب

الفصل الأول

نظرية ابن حزم في الحب

ربّما كان للظروف القاسية التي عاشها ابن حزم، ولا سيّما تلك التي كانت خارج قرطبة - بعدما أدارت الأيام له ظهرها فعاش محارباً مشرّداً لا يستطيع أن يرى أهله وأحبابه - أثر نفسي دفعه إلى كتابة « طوق الحمامة » وذلك لما كان يجد في نفسه من حنين قوي وشوق عارم إلى ذلك الماضي الذي عاش فيه أجمل أيام حياته فإنّ المادّة النثرية فيها اعتمدت على روايات حدثت في الماضي وأحداث عايشها، شاهدها أو سمع عنها ثمّ على تجارب ذاتية له هو في الحب، وينشد فيها أشعاراً، ومعظم الأشعار التي جاءت في « الطوق » هي أشعار ابن حزم نفسه إلاّ أبياتاً قليلة جداً ذكرها لغيره، استدعى المقام ذكرها.

وحين رجع ابن حزم إلى الماضي استرجع ذكريات الصبّاء، وعرض نماذج من واقعه المعاش، كما رسم صوراً من حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من خلال ذلك كله وحلّل النفس البشرية، ووصل إلى نتائج وأحكام يمكن أن تطبّق في كل الأزمنة والأمكنة بصفتها نزعات إنسانية عامّة^(١).

ولقد تناول ابن حزم الحب، صفاته، معانيه، أسبابه، أعراضه، وكان يستمد من الواقع فيعبّر عن هذه العاطفة مصوراً ما يملك الأفراد المحبين من مشاعر وانفعالات، وما يمرون به من حالات. ويلتزم في سرده الصدق لأنه يتحدث عما رآه هو أو رواه له الثقات أو يحكي تجربته الذاتية بكل جرأة وصراحة.

لم يهدف ابن حزم أن تؤدي رسالته غرضاً أخلاقياً، وإن تكن أثّرت بطريق غير مباشر في السلوك الإنساني^(٢). لذلك فإنه لم يذكر لنا فيها شيئاً عن أخبار الحب في البادية كما فعل ابن داود في كتاب « الزهرة ».

(١) انظر رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - مقدمة الطوق : ٤٦ ، ٤٢

(٢) انظر المصدر نفسه : ٥٣

اديب الثاني

ابن حزم والحب

الفصل الأول

نظريّة ابن حزم في الحبّ

وكان يمتنع عن ذكر أسماء بعض الروايات في حين يذكر أسماء الآخرين في روايات أخرى. فأولئك الذين اشتهروا وعُرفوا ولم يعد هناك ما يدعو لستر أسمائهم فكان يسميهم، أو لعله أن يكون هو أحياناً صاحب الحادثة ويكون في إعلانه عن نفسه ما قد يتضايق منه غيره.

واكتفى ابن حزم بأشعاره هو وجعل منها شواهد لأمور أو حالات من حالات الحب حدثت له أو وقعت لغيره، كما نظم أشعاراً تناسب حالات لأصدقائه أيضاً وربما كانت بطلب منهم، كما كان يستجيب فيلبي طلب نساءٍ يكلفنه نظم الشعر في حالات خاصة بهن. وهو يختلف بهذا عن ابن داود الذي ذكر اشعار الآخرين وأحياناً كان يذكر اشعاراً لنفسه في كتاب « الزهرة ».

وإذا كان ابن حزم قد عالج الحب في اوساط الأغنياء والطبقات المتميزة فليس في هذا ما يُسوَّغ لنا أن نصدر حكماً على كتابه بأنه لم يستوعب قضايا الحب عند الاندلسيين جميعاً، ذلك أن الحب هو الحب في كل مكان، فهو ظاهرة انسانية لا تختلف كثيراً عند الغني عما هي عند الفقير أو عند الحكام أو العلماء أو غيرهم.

وكتاب « الطوق » تحدث عن حب بين الجواري كما تحدث عن حب بين الحرائر، فلم يكن هناك انحصار في طبقة واحدة، بل في مختلف الطبقات، وذكر صفات عامة تنطبق على الجميع.

أما تأليف ابن حزم لرسالة « الطوق » فقد كان ظاهرة غير طبيعية في عصره، ولا سيما أنه رجل فقيه عالم بأحكام الشريعة، ولعل هذا هو الذي دعاه الى الإكثار من استخدام الأدلة الشرعية والعقلية، وأن يوظف في سبيل ذلك ثقافته الواسعة يضعها في وجه خصومه الذين وجدوها فرصة مواتية لهم للتشهير به وإفراغ كل سموم حقدهم من خلال ذلك المنفذ.

و « الطوق » كتاب أدب فيه الشعر والنثر والقصص الواقعية. وكان يحلّل ويعلّل ويفسّر ظاهرة الحب بطريقة علمية تستند الى العلم والعقل. ولم يكن فيه إطالة ولا ميل للاستطراد، ولا اتجاه من الكاتب لجعل مادته مادة للتسلية والمتعة، بل لغرض دراسة ظاهرة الحب دراسة واقعية تجريبية تعتمد الحقائق بقدر ما تبتعد عن الخرافة والوهم.

ويعد ابن حزم من الرواد الذين سبقوا الى دراسة العاطفة العذرية، وكان فيها متفرداً متميزاً، يبعد عن التقليد ويعمد الى الابتكار والتأصيل، ذلك أن التكنية عن الأسماء عنده إما لعدم استجازته كشف العورات وإما للمحافظة على صديق بينه وبينه مودة^(١).

وفي هذه الرسالة بين ابن حزم حقيقة الحب، وركّز على النفس واتصال أجزائها على ما كانت عليه في عالمها العلوي، ولم يعتدّ بجمال صورة الجسد الخارجية، وحذّر من الوقوع في المعصية، ونفّر منها بقوة، مما جعل كتابته تتصل بأقوى سبب الى العذرية، وجعلها أيضاً مؤطرة بإطار الدين والخلق الكريم.

وقد أعطى ابن حزم من خلال « طوق الحمامة » صورة تاريخية عن الاندلس مثلما أعطى صورة عن نفسه وعكس تجاربه الخاصة من خلالها. كان ابن حزم دائماً يشنّ هجوماً شديداً على التقليد وانضم اليه في هذا صديقه ابن شهيد.

ويمكن أن يعد كتاب « الطوق » من الكتب السابقة - في عصره - الى ولوج باب الدراسة النفسية والاجتماعية^(٢).

وقد يكون لفقد ابن حزم محبوبته تأثير لتأليف « الطوق »، وهذا ما يفسّر اعترافاته الصريحة حول تجارب الحب العفيف التي مرّ بها، وإرخاء العنان للنفس كي تكشف عما هو مستكن في أغوارها، فنراه ينطلق على سجيته متحدثاً دونما تحفظ.

وفي أثناء كتابته عن الحب كان يستشهد بنصوص من الآيات والأحاديث حسب الفهم الظاهري لها، ويستدل بما أثر عن الصحابة، ويوظف ما عنده من علوم وهي كثيرة ومتنوعة، وخاصة الفلسفية منها، ويعتمد على الملاحظة والتجربة والاستقراء بأسلوب يترك فيه الحرية للعقل ليوازن ويحلّل ثم بعد ذلك لا يتلکأ في اصدار الاحكام القطعية في تلك الحالات.

(١) انظر دراسة الحب في الأدب العربي ج ٢ - د. مصطفى عبد الواحد : ٢٢٩ - دار المعارف بمصر - القاهرة، وحيثما ذكر بعد ذلك أشير إليه بدراسة الحب في الأدب العربي.

(٢) انظر ابن حزم الاندلسي، حياته وأدبه - د. عبد الكريم خليفة : ٢٦٧ - دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ومكتبة الاقصى بالملكة الاردنية الهاشمية - عمان. وحيثما ذكر بعد ذلك أشير اليه بابن حزم الاندلسي، حياته وأدبه.

وسواء قصد ابن حزم أو لم يقصد فإن « الطوق » يخدم نواحي فنية تظهر فيها براعته في التعبير عن الحب شعراً ونثراً كما ذكر الدكتور طه حسين^(١). يقول ابن حزم : « وسأورد في رسالتي هذه أشعاراً قلتها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت ومن رآها عليّ أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر، وأكثر من ذلك فإن إخواني يجشّمونني القول فيما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم »^(٢). وهو في هذه الغاية يشترك مع ابن داود في تأليفه لكتاب الزهرة إذ يقول ابن داود : « ومثل هذا الكتاب انما يطلبه أهل الآداب، ليخفف على الألفاظ ويتسهل للحفاظ »^(٣).

ويحدثنا ابن حزم عما كان من صفاته سلبياً وكان يعمل جاهداً للتخلص منها، وما كان منها ايجابياً. ويذكر بصدق وجراً وصراحة أنه أحب مرات، وأنه عانى كثيراً في حبّه. كما تحدث عن محبوبته وصفاتها وغير ذلك مما هو خاص به. كان للطوق تأثير على الأدب المسيحي طيلة القرن الرابع عشر. هذا ما أكّده المفكر الاسباني أميركوكاسترو في كتابه « اسبانيا بين المسلمين واليهود والمسيحيين »^(٤). وقد حاصرت الجهات الرسمية الحاكمة الطوق ولكنه انتشر شعبياً على نطاق واسع، وذلك لما كانت تقوم به الجهات التي تمثل السلطة ومعها القائمون على أمر الثقافة من شن حرب على ابن حزم وتعاطف القاعدة الشعبية معه لعدم ثقتهم في الحكام آنذاك من ناحية، وما وجدوه في الكتاب من علم وأدب، ولأنه كتاب صريح وواقعي من الناحية الأخرى^(٥).

كما أشار محقق نص كتاب « الحب الممود » وهو الناقد الاسباني (خوليو

(١) انظر ألوان - د. طه حسين : ١١٧ - دار المعارف - القاهرة. الطبعة السادسة. وحيثما ذكر بعد ذلك اشير اليه بالوان.

(٢) رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق : ٨٧

(٣) الزهرة ج ١ - المقدمة : ٤٠

(٤) انظر مجلة أفاق عربية - العدد ١ : ٦٨ - مقال للدكتور طاهر أحمد مكي بعنوان «تأثير طوق الحمامة في الأدب الاسباني» -

مجلة فكرية شهرية عامة تصدر في بغداد - أيلول ١٩٧٦ م.

(٥) انظر المصدر نفسه : ٦٨

وكان الماضي يُلحُّ على ابن حزم بشدة، بكلِّ ما كان له فيه من ذكريات، ومن أصدقاء فقدهم، مما جعله يتمسكُ فيما بعد بالصديق إلى أبعد حدٍّ حتى لو أساءوا إليه. كذلك حبُّه الماضي وما كان له فيه من ذكريات، ولعلَّ حبُّه هذا كان قبل أن يتعلَّم علوم الشريعة ويتمكَّن منها، فرأى أنَّه لا ضير عليه من الحبِّ ولا من غيره مادام لا يواقع محرماً ويملك تماماً زمام نفسه. وكان ابن حزم يحتمل ما يصدر من الصديق ولا يقاطعه إلا في حالة واحدة وهي أن يتبيَّن له أن ذلك الصديق يكذب، فلا يتأخَّر عندها عن بتر علاقته معه.

ومن الصفات التي كان ابن حزم يحاول معالجتها في نفسه شدة الغضب، غير أنَّه لم يتمكن من التغلب عليها تماماً وبخاصَّة إزاء أولئك الذين ناصبوه العداة وحقدوا عليه. وأحسب أنَّ هذه من ابن حزم جرأة، وصراحة عالية حين يتحدث إليك عن صفاته ما يعجبه وما لا يعجبه منها وعن نقائص كانت فيه فكان يعمل للسيطرة عليها والتخلص منها. ثم هو لا يتوانى وهو يذكر تجارب واقعية لغيره في الحب أن يذكر تجاربه هو أيضاً. وهذه السيرة الذاتية له في الحبِّ وفي غير الحب تُعدُّ غايةً في الدقة وفي أعلى درجات الصدق. وهو من خلال عرضه لصفاته يذكر أنَّه يحب الوفاء ويحفظ العهد، ويكره الغدر، ويتَّصف بالتسامح، ويعفو عن إساءات أصدقائه، وليس هذا فحسب بل يقابل إساءاتهم بالإحسان إليهم، وأنَّه كان شديد الحنين إلى ماضي عهده، وأنَّه كان عزيز النفس أبيعاً لا يقبل الذلَّ، ولا يستنيم للصغار، كما أنَّه لم يكن يخشى سلاطين عصره حين يعلم أنَّه على الحق، وأنَّه كان ملتزماً تماماً بتعاليم الإسلام من غير ما تهاوَّن حتى إنَّه لم يقترب كبيرة من الكبائر أبداً فيقول: «دعني أخبرك أنني جُبلت على طبيعتين وفاء لا يشوبه تلوُّن، قد استوت فيه الحضرة والمغيب، والباطن والظاهر، تولَّده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عما زريته ولا تتطلع إلى عدم صحبته»^(١). وحين يتحدث عن وفائه لمحبووبته بعد وفاتها يقول: «دعني أخبرك فلقد أقيمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرَّد من ثيابي ولا تفتري دمة على جمود عيني وقلة إسعادها، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداءً لفديتها بكلِّ ما أملك

(١) انظر رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق : ٢٥٦

من طارف وتالد وببعض أعضاء جسمي العريضة عليّ ، مسارعاً طائعاً ، وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست سواها ، ولقد عفى حبي لها على كلّ ما قبله وحرّم ما كان بعده ^(١) .

وأما حنينه إلى الماضي فهو يعبر عنه قائلاً : « وما انتفعت بعيش ولا فارقت الإطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنّه لشجى يعتادني وولوع همّ ما ينفك يطوقني ، ولقد نفّس تذكرني ما مضى كلّ عيش أستأنفه ، وإنّي لقتيل الهموم في عداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا . والله المحمود على كلّ حال لا إله إلا هو » ^(٢) .

وفي حديثه عن عزة نفسه يقول : « وعزة نفس لا تقرّ على الضيم مُهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف ، مؤثرة الموت عليه » ^(٣) . وله شعر في عزة نفسه ووفائها قال فيه :

لي خلتان أذاقاني الأسى جرّعا	ونفّصا عيشتي واستهلكا جسدي
كلتاها تطلبني نحو خلتها	كالصئد ينشب بين الذئب والأسد
وعزة لا يحلّ الضيم ساحتها	صرامة فيه بالأموال والولـد ^(٤)

ويواصل ابن حزم الحديث عن صفاته فيقول أيضاً : « ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشدّ من الحديد وانفذ من السيف لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع » ^(٥) . كما يتحدث صراحة عن نزاهته وسلامة أخلاقه والتزامه أحكام الإسلام فيقول : « ومع هذا يعلم الله - وكفى به عليمًا - أنني بريء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجرة ، وإنّي لأقسم بالله أجلّ الأقسام أنني ما حللت

(١) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١ - الطوق : ٢٢٢ ، ٢٢٤

(٢) المصدر نفسه : ١٢٥

(٣) المصدر نفسه : ٢٥٦

(٤) انظر المصدر نفسه : ٢٥٦

(٥) انظر المصدر نفسه : ١٩٦

مئزري على فرج حرام قط »^(١).

ويحدثنا ابن حزم عن نفسه أنه قد تجرّع الحب وعانى منه كثيراً . ولعلّ البيئة الاندلسية بما كانت تتمتع به من جمال كانت تساعد على الحب ، والنظر الى المرأة والتمتع بحسنها ، ربما كان أمراً طبيعياً غير مستهجن في ذلك المجتمع ، فابن حزم يتحدث بصراحة عن حبّه في صباه ، وأنّ هذا الحب قد تكرر مع أكثر من واحدة ، ولم يشعر بحديثه هذا عن نفسه بأيّ حرج . ولقد ذكر حبّه لفتاة شقراء الشعر ، ولجارية أخرى ثم حبّه « لنعم » ويصرّح أنه ذاق اللذات على اختلاف أنواعها ، فهو يقول : « ولقد جرّبت اللذات على تصرفها ، وادركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنوّ من السلطان ، ولا للمال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا التروّح على المال ، من الموقع في النفس ما للوصول »^(٢) .

والحب من أقوى العوامل المؤثرة في السلوك الإنساني وفي تغييره في صفات المحب ليرضي بذلك المحبوب فيثبت الحب صفات وينفي أخرى حتى يكون مقبولا من قبل الطرف الثاني . وفي الحقيقة فإنّ هذا التغيير يؤثر في سلوك المحب والمحبوب ولاسيما اذا كان الحب متبادلاً بينها^(٣) . فقد أخبرنا ابن حزم أنّ البخيل يصبح كريماً والقطوب يتغيّر الي منبسط الوجه ، والجبان يصبح شجاعاً ، وغير ذلك من باقي التغييرات^(٤) .

كما أنّ للعادات والتقاليد والأعراف والقيم فعلها في منع المحب من الوقوع

(١) رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق : ٢٧٢

(٢) المصدر نفسه : ١٨٠

(٣) انظر فلسفة الحب والاخلاق عند ابن حزم الاندلسي - حامد احمد الدباس : ١٧٨ - دار الابداع للنشر والتوزيع - عمان -

الأردن . الطبعة الاولى ١٩٩٢ م . وحيثما ذكر بعد ذلك اشير اليه بفلسفة الحب والاخلاق عند ابن حزم الاندلسي .

(٤) انظر رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق : ١٠٥

في المعصية، وهذا ما بينه ابن حزم في رسالة مداواة النفوس أيضاً^(١). كما بين أن الإنسان ميدان صراع بين عقله وشهوته، وأن العقل يزداد سلطانه باتساع المعرفة ورسوخها، فإذا كان له توفيق من الله - عز وجل - وعناية عصم بإذن الله. وقد يودع الله نفسه حدساً يرى به شر الخطيئة فتنتقمع عن ذاك طوابع الشهوة لخير، أراد الله به^(٢). ولكن إذا تقوّت الطبيعة الثانية وهي الشهوة فإنها تحجب العقل عن التمييز وتعمي البصيرة وتهوّن أمر القبيح، ويكون قد رق دينه ولم يكثرث بالفضائح والقبايح ومن كان كذلك فلا يرجى منه خير^(٣).

ويخبرنا ابن حزم أن الذي ينهى نفسه عن الهوى ولا يواقع المعاصي صابراً متعقفاً فإن جزاءه الجنة والسعادة الدائمة في الآخرة^(٤). وهكذا فهو بشكل غير مباشر يدعو إلى سلوك طريق مستقيم. وهو بهذا يبين أثر الحب في توجيه السلوك وتهذيبه^(٥). وفي «الطوق» بين ابن حزم أن الناس تتماثل طبائعهم، ولكن للدين والاخلاق تأثيراً عليها، وربما كان من أهدافه أن يوجه المجتمع الاندلسي نحو

(١) انظر رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - رسالة مداواة النفوس : ٢٧١

(٢) انظر رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق : ٢٩٨

(٣) انظر المصدر نفسه : ٢٧٩

(٤) وكتب ابن القيم الجوزية في ذم الهوى باباً هو الباب التاسع والعشرون من كتابه «روضة المحبين» بين فيه أن الهوى هو الميل وهو موجود بطبع الإنسان في أصل خلقه، وأنه ضروري من أجل المحافظة على بقائه، ولهذا فإنه لا يمكن مدح الهوى ولا ذمه، إلا حين يتجاوز الحد المقرر ويطفئ فلا يقف عند مجرد الضروري الذي به يتم جلب المنفعة ودفع الضرر. والهوى ذم في الشريعة كما ورد في القرآن والحديث باعتبار أن الأكثرية لا تقف عند حد الاعتدال، بل يجرهم الهوى إلى التجاوز كثيراً. ويرى ابن القيم أن على المرء أن يدرب نفسه مرات كثيرة على دفع الهوى المأمون العاقبة كي يسهل عليه فيما بعد أن يخالف الهوى الفادح الضرر. ثم ما يلبث ابن القيم أن يصف في كتابه علاجاً لمن وقع في الهوى. وهو يرى أنه يعون الله وتوفيقه يمكنه التخلص منه ويجعل ابن القيم ذلك العلاج في خمسين أمراً بون أن يذكر أن التخلص بها جميعاً أو ببعضها.

انظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين. لابن القيم الجوزية (الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزدعي) : ٤٢١ - ٤٢٥ - مكتبة دار التراث - القاهرة.

(٥) انظر رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق : ٢٩٥، ٢٩٦.

العفاف بعد ما لمس أن الحب انتشر في ذلك المجتمع بشكل واضح، ومن خلال ذكره للصور المظلمة لبعض النفوس الشريرة فقد وجه الناس الى الابتعاد عن مثلها بعد ما بيّن الضرر، فهو نوع من أنواع التربية الاجتماعية.

وقد ميّز ابن حزم أمرين، أولهما داخل في حدود إرادة الإنسان ولا بدُّ أن يحاسب عليه، ومنها حركة الجوارح فهي داخلية في حدود الإرادة البشرية، فيلتزم الإنسان أن يمنعها من المحرمات. أمّا غزو الحب لقلب الإنسان فليس أمراً يدخل في حدود طاقته، وليس له فيه أيُّ خيار، فهذا مما لا يحاسب عليه يقول ابن حزم: «وبالجملة فإنني لا أقول بالمرأية ولا أنسك أنسكاً أعجمياً. ومن أدى الفرائض المأمور بها، واجتنب المحارم المنهي عنها، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسم الاحسان، ودعني مما سوى ذلك وحسبي الله»^(١). فالإنسان غير مكلف بما يخرج عن حدود إرادته ولا بأمر لا يتعلّق بعمل جوارحه، والله يغفر اللّهم وصفات الذنوب حين يلتزم الإنسان باجتناّب الكبائر ويؤدي ما عليه من الفرائض ويتعامل مع الناس بالحسنى.

والنفس البشرية لا يلائمها أن تلتزم ناحية واحدة في حياتها، وأنّه لا بدُّ من التغيير قليلاً، فالجدُّ والحق لا بدُّ أن يتخللها شيء يسير من الهزل والباطل لكي ترتاح النفس واستشهد ابن حزم بالحديث النبوي «أريحو النفوس فإنّها تصدأ كما يصدأ الحديد»^(٢). وما رواه عن أبي الدرداء «أجموا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق»^(٣). واستشهد ابن حزم بخلفاء وعلماء ورجال صالحين وكبار رجال دولة في عصره أحبّوا، وأنّ الذي منعه من إيراد الكثير من أخبار هؤلاء الأئمة هو المحافظة منه على حقوقهم. ويرى الدكتور مصطفى عبد الواحد أنّ هذه الأدلّة التي ذكرها ابن حزم فيها نظر فيقول: «وأياً كان الأمر في الأدلّة التي يوردها من يرون إباحة العشق من وجهة نظر الإسلام فإنّه لمن المؤكّد أنّ الإسلام

(١) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي - الطوق: ٢٠٩.

(٢) بحثت عنه في مظانه من كتب الحديث فلم أجده وأظنه ضعيفاً. (انظر بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذاهن والهاجس - لابن عبد البرّ - الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ النمري القرطبي ج ١ : ١١٦ بلفظ «حادثوا هذه القلوب فإنّها تصدأ كما يصدأ الحديد» - تحقيق محمد مرسي الخولي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

(٣) بحثت عنه في مظانه من كتب الحديث فلم أجده وأظنه ضعيفاً. (انظر المصدر السابق نفسه) : ١١٥ بلفظ «إنّي لأستجم قلبي بشيء من اللهو ليكون أقوى لي على الحق» .

إنما يهيمه التحكّم في أعمال الجوارح ومكتسباتها، ولا يهيمه أن يحكم على عاطفة تختلف بين الحقيقة والخيال لا يمكن تحديدها ولا إدراك ما هيبتها أما الاستدلال بالواقع الذي لجأ إليه ابن حزم فهو دليل غير مقنع إذ أن الواقع لا يصلح حجة على الإباحة وإنما يُستقى ذلك من الأدلة الشرعية^(١).

وإنه لما يدعو إلى الاستغراب أن لا يعترف ابن حزم بالتقليد ثم يتخذ من تقليد من ذكرهم من الخلفاء والعلماء والصالحين وكبار رجال الدولة معن وقعوا في الحب في عصره دليلاً على إباحة الحب، ولو أنه ساق أدلة أخرى من الشريعة وكان فيها على جانب كبير من الصواب حتى وإن خالفه غيره منها. وكان ابن داود قد ذكر كلاماً شبيهاً بهذا وأنه يملك أدلة من الكتاب والسنة وأخبار السابقين لو ساقها لتبيّن للمعارضين أن الحب غير مُستنكر في الشريعة، لكن ابن داود لم يذكر تلك الأدلة، فقام ابن حزم بذكر بعضها من بعده. وهذا غير مستغرب لأن كلا الرجلين ينهلان في الأحكام الفقهية من المذهب الظاهري^(٢). وفي الحقيقة فإن عدم وجود أدلة تحرم الحب فيه ما يدل على إباحته. فالأشياء على الإباحة ما لم يرد دليل بالتحريم. ولو فرض عدم وجود نصوص قطعية في هذه المسألة تبيّن حكمها بشكل قطعي، فهناك اجتهادات للعلماء كل حسب فهمه ويُلتمس العذر لكل واحد فيما توصل إليه. والحب شيء في ذات النفس وهو غير ارادي والأحكام الشرعية تحكم على الأعمال التي تقوم بها جوارح الإنسان.

وأما حديثه عن المرأة الاندلسية فقد بيّن أن الحرائر كن ممنوعات في قصورهن، وأن الحرية في الحركة كانت للجواري، وأن المرأة شديدة المحافظة على شؤون الحب، بل تُبالغ في كتمان أسرار المحبين، وهذه ميزة تتميز بها النساء على الرجال وربما يعود ذلك لتفرغهن في البيوت أكثر من الرجال أو لشيء آخر في ذوات أنفسهن أو جبلتهن. وقد أنصف ابن حزم المرأة كما لم ينصفها أي شخص آخر، فرفض تحميلها مسؤولية الخطيئة وحدها، ولم يَرَ أنها أكثر ميلاً للشهوة من الرجل، بل هما متساويان عنده في هذا الأمر. وعلى الرغم من التنشئة له بين

(١) دراسة الحب في الأدب العربي ج ٢: ٢٣٥.

(٢) انظر رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق: ٩٢.

النساء وما فطرت عليه نفسه من سوء الظن بهن، فإنه كان متجرباً وأصدر أحكامه عليهن بموضوعية. ويبدو أن ما ذكره ابن حزم من تفرغ بال النساء مما يجعل انصرافهن لأمور الحب وحفظهن لأسرار العشاق كان مستمداً من بيئة الأندلس ومقتصراً على ذلك العصر^(١)، فقد تغير وضع المرأة الآن في معظم أنحاء الدنيا وهن يمارسن الأعمال في الميادين المختلفة كالرجال وقد يتفوق بعضهن على الرجال أحياناً إلا إذا اعتبرنا هذا شيئاً موجوداً معهن في أصل الخلق فلا يماري أحد في أن نفوس النساء تختلف عن نفوس الرجال بشكل عام. ويخبرنا ابن حزم أن جمال الرجال أثبت من جمال النساء، فجمال النساء يتغير بتقدم السن، وبالتعرض للحرارة والبرودة والهموم وبما يعترضها من صعاب في الأزمنة والامكنة المختلفة، وأنه لو تعرض وجه المرأة لما يتعرض له وجه الرجل لما مضى عليه وقت طويل حتى يتغير جذرياً. أما جمال الرجال فبطيء التغير على الرغم من كل الذي يواجهونه^(٢). وابن حزم ما كان يحسن الظن بالنساء، وكان في طبيعته شدة غيرة ربما كان لتربيته الأولى بينهن وأخذ علومه الأولى عن جوارى القصر أثر كبير في طبع نفسه على ذلك. وأدعى ابن حزم أن لديه معرفة واسعة بأسرار النساء وأطلاعاً قد لا يكون عند غيره، وفهماً للغوامض من أحوالهن، ولا سيما أن تربيته الأولى بينهن جعلتهن يأنسن به ويولينه ثقتهم ويطلعن على أدق الأسرار من مكنونات صدورهن. فهو على أساس من كل هذا يدعي مثل هذا العلم بأمورهن فيقول: «ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأنني ربيت في جحورهن ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقل وجهي، وهن علمنني القرآن وروينني كثيراً من الأشعار ودربنني في الخط، ولم يكن وكدي وإعمال ذهني منذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك. وأنا لا أنس شيئاً مما أراه منهن، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن في

(١) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١ - الطوق: ١٦٤، ١٤١ - ١٤٣، ١٦٣ - ١٦٦.

(٢) انظر المصدر نفسه: ٢٥٣.

جهتهن فطرت به، فأشرفت من اسبابهن على غير قليل»^(١).

ويرى الدكتور مصطفى عبد الواحد أن معرفة ابن حزم بالنساء لم تكن تشمل معرفة بدقائق الأمور. يقول: «فكان لا بد لابن حزم أن يشبع رغبته في المعرفة وأن يستوفي فكرته عن سلوكهن ليتمكن من الحكم وإبداء الرأي»^(٢). وفي الحقيقة فإن ابن حزم لم يدع أنه يعلم كل الدقائق والتفاصيل بحيث لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وعلمها من أمورهن، لكنه ادعى أنه اعلم من غيره بهن فلا يكاد يرقى إلى مستوى علمه بهن أحد، ومن كان كذلك فله كل الحق في إصدار الحكم عليهن ومع ذلك فلا يفترض أن تكون سائر أحكامه عليهن منزهة تماماً، لكن نحن مع أحكامه حتى يثبت لنا أن بعضها ليس كما قال. وما هو جدير بالذكر أن سوء الظن الذي نما في نفسه تجاههن كان مبنياً على مشاهداته لأنماط من سلوكهن. فأحكامه كانت تعتمد الخبرة والمشاهدة والمعرفة الدقيقة في الوقت الذي أصدر كثير من السابقين أحكامهم عليهن رجماً بالغيب واعتماداً على مجرد الظن. فإذا كانت أحكام ابن حزم في مجال الفريضة تتصف بالصرامة وعدم التردد فإنه اعتاد أن يعطي مثل هذه الأحكام في قضايا فقهية وكلامية واجتماعية وغيرها، فهذا شيء اتصفت به أحكامه حينما كان متيقناً تماماً، ذلك أن أدلته التي يبني عليها مثل هذه الأحكام تكون عنده في غاية الدقة لانسجامها مع الطرق العلمية وقد انصف المرأة ودافع عنها ورد على الاتهام الذي وجهه بعضهم إليها بأنها سبب المعصية، وأنها هي التي تقود الرجل وتحمل وحدها المسؤولية في ارتكاب الخطيئة. يقول ابن حزم: «وإني لأسمع كثيراً ممن يقول: الوفاء في قمع الشهوات في الرجال دون النساء، فأطيل العجب من ذلك، وإن لي قولاً لا أحول عنه: الرجال والنساء في الجنوح إلى هذين الشيئين سواء، وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم من مانع إلا وقع في شرك الشيطان واستهوته المعاصي واستفزه الحرص وتفؤله الطمع، وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا

(١) انظر المصدر نفسه: ١٦٦.

(٢) دراسة الحب في الأدب العربي ج ٢: ٢٧١.

وامكنته، حتماً مقضياً، حكماً نافذاً لا محيد عنه البتة»^(١).

وكشف ابن حزم من باب معرفته بخفايا أمور النساء أن للمرأة مكائد دقيقة، وتدابير غامضة من أجل لغت انتباه الرجال اليها، وايصال حبها الى قلوبهم منها: افتعال حركات اثناء المشي، واتخاذ الزينة، والترتيب لايقاع المزاح واستشهد بآية من سورة النور هي قول الله تعالى: «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ»^(٢) فيقول ابن حزم: «فلولا علم الله عز وجل بدقة إغماضهن في السعي لا يصل حبهن الى القلوب ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوى لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى، وهذا حدُّ التعرُّض فكيف بما دونه»^(٣).

ويرى بعضهم أن ابن حزم من خلال حديثه عن المرأة الاندلسية ومعرفته بها أصدر أحكاماً عامة على سائر النساء، ومن هنا كانت أحكامه تفتقر إلى الدقة. لكن ينبغي أن نتذكر أن المرأة إنسان له عواطفه ومشاعره ووسائله وأساليبه المتعلقة بهذه المشاعر والأحاسيس، ولا أحب المرأة في الاندلس من حيث عواطفها المتعلقة بظاهرة الحب أو حتى غيرها تختلف عن مثيلاتها في البلدان الأخرى، فهذه أمور انسانية تكاد تكون مشتركة بالنسبة للجميع ولا اظن ابن حزم تجاوز الصواب في أحكامه على المرأة من خلال تجارب ومشاهدات كانت قائمة فعلاً وساق الأدلة العقلية والنقلية فاثبت بها أحكامه. وذكر الدكتور عبد الكريم خليفة أن ابن حزم أعطى فكرة سيئة عن المرأة من خلال قصصه التي رواها عنها، واستدل لما ذكره بقول ابن حزم عن المرأة إنها تحدث حركة فاضلة كانت عنها بمعزل وتأتي بكلام زائد كانت في غنى عنه حين تشعر بوجود الرجل، وقد تظهر الزينة وتصطنع بطريقة خاصة في المشي، وتنشيء المزاح وغير ذلك. ولكن حين ذكر ابن حزم هذا فإنه لم يخص حديثه عن المرأة في مثل هذه الأمور، فذكر أن الرجال يفعلون مثل ذلك أيضاً، فلماذا يفض النظر عن الذي قاله ابن حزم في الرجل ويذكر ما قاله في

(١) رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق: ٢٦٩.

(٢) سورة النور: الآية: ٢١.

(٣) رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق: ٢٧١، ٢٧٢.

المرأة مع أنه ساوى بينهما^(١).

وأثار بعض الباحثين مسألة صمت ابن حزم عن ذكر أمه ولا سيما أنه كتب رسالة في أمهات الخلفاء، وقالوا: إنه ربّما يرجع ذلك إلى ما طبع عليه ابن حزم من غيره شديدة بسبب نشأته بين جوارى القصر أو إلى أمر آخر. واعتقد أن صفات الأنفة وعزة النفس والغيرة وما كان يعرفه ابن حزم من أسرار النساء كلّها مجتمعة ربّما تكون هي التي دعته إلى ذلك^(٢).

(١) انظر ابن حزم الاندلسي، حياته وأدبه: ٢١٣، ٢١٤.

(٢) انظر ابن حزم الاندلسي، حياته وأدبه: ٢١١.

وكان الماضي يُلجّ على ابن حزم بشدة، بكلّ ما كان له فيه من ذكريات، ومن أصدقاء فقدهم، مما جعله يتمسك فيما بعد بالصديق إلى أبعد حدّ حتى لو أساءوا إليه. كذلك حبُّ الماضي وما كان له فيه من ذكريات، ولعلّ حبّه هذا كان قبل أن يتعلّم علوم الشريعة ويتمكّن منها، فرأى أنّه لا ضير عليه من الحبّ ولا من غيره مادام لا يواقع محرماً ويملك تماماً زمام نفسه. وكان ابن حزم يحتمل ما يصدر من الصديق ولا يقاطعه إلّا في حالة واحدة وهي أن يتبيّن له أن ذلك الصديق يكذب، فلا يتأخّر عندها عن بتر علاقته معه.

ومن الصفات التي كان ابن حزم يحاول معالجتها في نفسه شدة الغضب، غير أنّه لم يتمكن من التغلب عليها تماماً وبخاصّة إزاء أولئك الذين ناصبوه العداء وحقدوا عليه. وأحسب أنّ هذه من ابن حزم جرأة، وصراحة عالية حين يتحدث إليك عن صفاته ما يعجبه وما لا يعجبه منها وعن نقائص كانت فيه فكان يعمل للسيطرة عليها والتخلص منها. ثم هو لا يتوانى وهو يذكر تجارب واقعية لغيره في الحب أن يذكر تجاربه هو أيضاً. وهذه السيرة الذاتية له في الحبّ وفي غير الحب تُعدّ غايةً في الدقة وفي أعلى درجات الصدق. وهو من خلال عرضه لصفاته يذكر أنّه يحب الوفاء ويحفظ العهد، ويكره الغدر، ويتّصف بالتسامح، ويعفو عن إساءات أصدقائه، وليس هذا فحسب بل يقابل إساءاتهم بالإحسان إليهم، وأنّه كان شديد الحنين إلى ماضي عهده، وأنّه كان عزيز النفس أحياناً لا يقبل الذلّ، ولا يستنيم للصغار، كما أنّه لم يكن يخشى سلاطين عصره حين يعلم أنّه على الحق، وأنّه كان ملتزماً تماماً بتعاليم الاسلام من غير ما تهاون حتى إنّّه لم يقترب كثيراً من الكبائر أبداً فيقول: «دعني أخبرك أنني جُبلت على طبيعتين وفاء لا يشوبه تلوّن، قد استوت فيه الحضرة والمغيّب، والباطن والظاهر، تولّده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عمّا زريته ولا تتطلع إلى عدم صحبته»^(١). وحين يتحدث عن وفائه لمحبوّته بعد وفاتها يقول: «دعني أخبرك فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرّد من ثيابي ولا تفتّرلي دمة على جمود عيني وقلّة إسعادها، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداءً لفديتها بكلّ ما أملك

(١) انظر رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق : ٢٥٦

من طارف وتالد وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليّ ، مسارعاً طائعاً ، وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست سواها ، ولقد عفى حبي لها على كل ما قبله وحرّم ما كان بعده «^(١) .

وأما حنينه إلى الماضي فهو يعبر عنه قائلاً : « وما انتفعت بعيش ولا فارقت الإطراق والانغلاق مذ نقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجى يعتادني وولوع همّ ما ينفك يطوّقني ، ولقد نفّص تذكري ما مضى كلّ عيش أستأنفه ، وإنني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا . والله المحمود على كلّ حال لا إله إلا هو »^(٢) .

وفي حديثه عن عزة نفسه يقول : « وعزة نفس لا تقرّ على الضيم مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف ، مؤثرة الموت عليه »^(٣) . وله شعر في عزة نفسه ووفائها قال فيه :

لي خلّتان أذاقاني الأسى جرّعاً	ونفّصا عيشتي واستهلکا جسدي
كلّتاها تطلّبني نحو خلّتها	كالصيّد ينشّب بين الذئب والأسد
وعزة لا يحلّ الضيم ساحتها	صرامة فيه بالأموال والولّد ^(٤)

ويواصل ابن حزم الحديث عن صفاته فيقول أيضاً : « ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشدّ من الحديد وانفذ من السيف لا اجيب الى الدنيا ولا اساعد على الخضوع »^(٥) . كما يتحدث صراحة عن نزاهته وسلامة أخلاقه والتزامه أحكام الإسلام فيقول : « ومع هذا يعلم الله - وكفى به عليماً - أنني بريء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجرة ، وإنني لأقسم بالله أجل الأقسام أنني ما حللت

(١) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١ - الطوق : ٢٢٣ ، ٢٢٤

(٢) المصدر نفسه : ١٢٥

(٣) المصدر نفسه : ٢٥٦

(٤) انظر المصدر نفسه : ٢٥٦

(٥) انظر المصدر نفسه : ١٩٦

مئزري على فرج حرام قط »^(١)

ويحدثنا ابن حزم عن نفسه أنه قد تجرّع الحب وعانى منه كثيراً . ولعلّ البيئة الاندلسية بما كانت تتمتع به من جمال كانت تساعد على الحب ، والنظر الى المرأة والتمتع بحسنها ، ربما كان أمراً طبيعياً غير مستهجن في ذلك المجتمع ، فابن حزم يتحدث بصراحة عن حبه في صباه ، وأن هذا الحب قد تكرر مع أكثر من واحدة ، ولم يشعر بحديثه هذا عن نفسه بأيّ حرج . ولقد ذكر حبه لفتاة شقراء الشعر ، ولجارية أخرى ثم حبه « لنعم » ويصرّح أنه ذاق اللذات على اختلاف انواعها ، فهو يقول : « ولقد جرّبت اللذات على تصرفها ، وادركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنوّ من السلطان ، ولا للمال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا التروّح على المال ، من الموقع في النفس ما للوصول »^(٢) .

والحب من أقوى العوامل المؤثرة في السلوك الإنساني وفي تغييره في صفات المحب ليرضي بذلك المحبوب فيثبت الحب صفات وينفي أخرى حتى يكون مقبولا من قبل الطرف الثاني . وفي الحقيقة فإن هذا التغيير يؤثر في سلوك المحب والمحبوب ولاسيما اذا كان الحب متبادلاً بينها^(٣) . فقد اخبرنا ابن حزم أن البخيل يصبح كريماً والقطوب يتغيّر إلى منبسط الوجه ، والجبان يصبح شجاعاً ، وغير ذلك من باقي التغييرات^(٤) .

كما أن للعادات والتقاليد والأعراف والقيم فعلها في منع المحب من الوقوع في المعصية ، وهذا ما بينه ابن حزم في رسالة مداواة النفوس ايضاً^(٥) . كما بين أن

(١) رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق : ٢٧٢

(٢) المصدر نفسه : ١٨٠

(٣) انظر فلسفة الحب والاخلاق عند ابن حزم الاندلسي - حامد احمد الدباس : ١٧٩ - دار الابداع للنشر والتوزيع - عمان - الاردن . الطبعة الاولى ١٩٩٣ م . وحيثما ذكر بعد ذلك اشير اليه بفلسفة الحب والاخلاق عند ابن حزم الاندلسي .

(٤) انظر رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق : ١٠٥

(٥) انظر رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - رسالة مداواة النفوس : ٢٧١

الانسان ميدان صراع بين عقله وشهوته، وأنَّ العقل يزداد سلطانه باتساع المعرفة ورسوخها، فإذا كان له توفيق من الله - عزُّ وجلُّ - وعناية عَصَم بإذن الله. وقد يودع الله نفسه حدساً يرى به شرُّ الخطيئة فتنقمع عن ذاك طوائع الشهوة لخير، أراد الله به ^(١). ولكن إذا تقوَّت الطبيعة الثانية وهي الشهوة فإنها تحجب العقل عن التمييز وتعمي البصيرة وتهوِّن أمر القبيح، ويكون قد رُقَّ دينه ولم يكثرث بالفضائح والقبايح ومن كان كذلك فلا يرجى منه خير ^(٢).

ويخبرنا ابن حزم أنَّ الذي ينهى نفسه عن الهوى ولا يواقع المعاصي صابراً مُتَعَفِّفاً فإنَّ جزاءه الجنة والسعادة الدائمة في الآخرة ^(٣). وهكذا فهو بشكل غير مباشر يدعو إلى سلوك طريق مستقيم. وهو بهذا يبين أثر الحب في توجيه السلوك وتهذيبه ^(٤). وفي «الطوق» بيِّن ابن حزم أنَّ الناس تتماثل طبائعهم، ولكنَّ للدين والاخلاق تأثيراً عليها، وربَّما كان من أهدافه أن يوجِّه المجتمع الاندلسي نحو العفاف بعد ما لمس أنَّ الحب انتشر في ذلك المجتمع بشكل واضح. ومن خلال ذكره للصور المظلمة لبعض النفوس الشريرة فقد وجَّه الناس إلى الابتعاد عن مثلها بعد ما بيَّن الضرر، فهو نوع من أنواع التربية الاجتماعية.

(١) انظر رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق : ٢٩٨

(٢) انظر المصدر نفسه : ٢٧٩

(٣) وكتب ابن قَيِّم الجوزيَّة في ذم الهوى باباً هو الباب التاسع والعشرون من كتابه « روضة المحبين » بين فيه أنَّ الهوى هو الميل وهو موجود بطبع الإنسان في أصل خلقه، وأنه ضروري من أجل المحافظة على بقائه، ولهذا فإنه لا يمكن مدح الهوى ولا ذمه، إلَّا حين يتجاوز الحدَّ المقرَّر ويطلو فلا يقف عند مجرد الضروري الذي به يتم جلب المنفعة ودفع الضرر. والهوى ذمُّ في الشريعة كما ورد في القرآن والحديث باعتبار أنَّ الأكثرية لا تقف عند حدِّ الاعتدال، بل يجرُّهم الهوى إلى التجاوز كثيراً. ويرى ابن القَيِّم أنَّ على المرء أن يدرِّب نفسه مرات كثيرة على دفع الهوى المأمون العاقبة كي يسهل عليه فيما بعد أن يخالف الهوى الفادح الضرر. ثم ما يلبث ابن القَيِّم أن يصف في كتابه علاجاً لمن وقع في الهوى. وهو يرى أنَّه بعون الله وتوفيقه يمكنه التخلص منه ويجعل ابن القَيِّم ذلك العلاج في خمسين أمراً دون أن يذكر أنَّ التخلص بها جميعاً أو ببعضها « انظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين. لابن قَيِّم الجوزيَّة (الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي) : ٤٢١ - ٤٢٥ - مكتبة دار التراث - القاهرة ».

(٤) انظر رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق : ٢٩٥، ٢٩٦.

وقد ميّز ابن حزم أمرين، أولهما داخل في حدود إرادة الإنسان ولا بد أن يحاسب عليه، ومنها حركة الجوارح فهي داخلية في حدود الإرادة البشرية، فيلزم الإنسان أن يمنعها من المحرمات. أمّا غزو الحب لقلب الإنسان فليس أمراً يدخل في حدود طاقته، وليس له فيه أي خيار، فهذا مما لا يحاسب عليه يقول ابن حزم: «وبالجملة فإنني لا أقول بالمراية ولا أنسك نسكاً أعجمياً. ومن أدى الفرائض المأمور بها، واجتنب المحارم المنهي عنها، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسم الاحسان، ودعني مما سوى ذلك وحسبي الله»^(١). فالإنسان غير مكلف بما يخرج عن حدود إرادته ولا بأمر لا يتعلق بعمل جوارحه، والله يغفر اللوم وصفائير الذنوب حين يلتزم الإنسان باجتنب الكبائر ويؤدي ما عليه من الفرائض ويتعامل مع الناس بالحسنى.

والنفس البشرية لا يلائمها أن تلتزم ناحية واحدة في حياتها، وأنه لا بد من التغيير قليلاً، فالجدُّ والحق لا بد أن يتخللها شيء يسير من الهزل والباطل لكي ترتاح النفس واستشهد ابن حزم بالحديث النبوي «أريحو النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد»^(٢). وما رواه عن أبي الدرداء «أجمؤا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق»^(٣). واستشهد ابن حزم بخلفاء وعلماء ورجال صالحين وكبار رجال دولة في عصره أحبوا، وأن الذي منعه من إيراد الكثير من أخبار هؤلاء الأئمة هو المحافظة منه على حقوقهم. ويرى الدكتور مصطفى عبد الواحد أن هذه الأدلة التي ذكرها ابن حزم فيها نظر فيقول: «وأياً كان الأمر في الأدلة التي يوردها من يرون إباحة العشق من وجهة نظر الإسلام فإنه لمن المؤكد أن الإسلام إنما يهتم التحكّم في أعمال الجوارح ومكتسباتها، ولا يهتم أن يحكم على عاطفة تختلف بين الحقيقة والخيال لا يمكن تحديدها ولا إدراك ما هيتهأ أما

(١) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي - الطوق: ٢٠٩.

(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذاهن والهاجس - لابن عبد البر (الامام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد

البر النمري القرطبي) ج ١: ١١٦ بلفظ (حادثوا هذه القلوب فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد) - تحقيق محمد مرسى الخولي -

دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان. الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٣) المصدر نفسه: ١١٥ بلفظ (إني لاستجم قلبي بشيء من اللهو ليكون أقوى لي على الحق).

الاستدلال بالواقع الذي لجأ إليه ابن حزم فهو دليل غير مقنع إذ أن الواقع لا يصلح حجة على الإباحة وإنما يُستقى ذلك من الأدلة الشرعية^(١).

وإنه لما يدعو إلى الاستغراب أن لا يعترف ابن حزم بالتقليد ثم يتخذ من تقليد من ذكرهم من الخلفاء والعلماء والصالحين وكبار رجال الدولة ممن وقعوا في الحب في عصره دليلاً على إباحة الحب، ولو أنه ساق أدلة أخرى من الشريعة وكان فيها على جانب كبير من الصواب حتى وإن خالفه غيره فهيها. وكان ابن داود قد ذكر كلاماً شبيهاً بهذا وأنه يملك أدلة من الكتاب والسنة وأخبار السابقين لو ساقها لتبين للمعارضين أن الحب غير مُستنكر في الشريعة، لكن ابن داود لم يذكر تلك الأدلة، فقام ابن حزم بذكرها أو ذكر بعضها من بعده. وهذا غير مستغرب لأن كلا الرجلين ينهلان في الأحكام الفقهية من المذهب الظاهري^(٢). وفي الحقيقة فإن عدم وجود أدلة تحرم الحب فيه ما يدل على إباحته. فالأشياء على الإباحة ما لم يرد دليل بالتحريم. ولو فرض عدم وجود نصوص قطعية في هذه المسألة تبين حكمها بشكل قطعي، فهناك اجتهادات للعلماء كل حسب فهمه ويلتمس العذر لكل واحد فيما توصل إليه. والحب شيء في ذات النفس وهو غير ارادي والأحكام الشرعية تحكم على الأعمال التي تقوم بها جوارح الإنسان.

وأما حديثه عن المرأة الاندلسية فقد بين أن الحرائر كن ممنوعات في قصورهن، وأن الحرية في الحركة كانت للجواري، وأن المرأة شديدة المحافظة على شؤون الحب، بل تُبالغ في كتمان أسرار المحبين، وهذه ميزة تتميز بها النساء على الرجال وربما يعود ذلك لتفرغهن في البيوت أكثر من الرجال أو لشيء آخر في ذوات أنفسهن أو جبلتهن. وقد أنصف ابن حزم المرأة كما لم ينصفها أي شخص آخر، فرفض تحميلها مسؤولية الخطيئة وحدها، ولم ير أنها أكثر ميلاً للشهوة من الرجل، بل هما متساويان عنده في هذا الأمر. وعلى الرغم من التنشئة له بين النساء وما فطرت عليه نفسه من سوء الظن بهن، فإنه كان متجرداً وأصدر أحكامه عليهن بموضوعية. ويبدو أن ما ذكره ابن حزم من تفرغ بال النساء مما يجعل

(١) دراسة الحب في الأدب العربي ج ٢: ٢٢٥.

(٢) أنظر رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق: ٩٢.

انصرفهن لأمور الحب وحفظهن لأسرار العشاق كان مستمداً من بيئة الأندلس ومقتصراً على ذلك العصر^(١)، فقد تغير وضع المرأة الآن في معظم أنحاء الدنيا وهن يمارسن الأعمال في الميادين المختلفة كالرجال وقد يتفوق بعضهن على الرجال أحياناً إلا إذا اعتبرنا هذا شيئاً موجوداً معهن في أصل الخلق فلا يماري أحد في أن نفوس النساء تختلف عن نفوس الرجال بشكل عام. ويخبرنا ابن حزم أن جمال الرجال أثبت من جمال النساء، فجمال النساء يتغير بتقدم السن، وبالتعرض للحرارة والبرودة والهموم وبما يعترضها من صعاب في الأزمنة والامكنة المختلفة، وأنه لو تعرض وجه المرأة لما يتعرض له وجه الرجل لما مضى عليه وقت طويل حتى يتغير جذرياً. أما جمال الرجال فبطيء التغير على الرغم من كل الذي يواجهونه^(٢). وابن حزم ما كان يحسن الظن بالنساء، وكان في طبيعته شدة غيرة ربما كان لتربيته الأولى بينهن وأخذ علومه الأولى عن جوارى القصر أثر كبير في طبع نفسه على ذلك. وأدعى ابن حزم أن لديه معرفة واسعة بأسرار النساء واطلاعاً قد لا يكون عند غيره، وفهماً للغوامض من أحوالهن، ولا سيما أن تربيته الأولى بينهن جعلتهن يأنسن به ويولينه ثقتهن ويطلعنّه على أدق الأسرار من مكنونات صدورهن. فهو على أساس من كل هذا يدعي مثل هذا العلم بأمورهن فيقول: «ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأنني ربّيت في حورهن ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حدّ الشباب وحين تبقل وجهي، وهنّ علمنني القرآن وروينني كثيراً من الأشعار ودربنني في الخط، ولم يكن وكدي وإعمال ذهني منذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً إلا تعرفُ أسبابهنّ والبحث عن أخبارهنّ وتحصيل ذلك. وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهنّ، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظنّ في جهتهنّ فطرت به، فأشرفت من أسبابهنّ على غير قليل»^(٣).

ويرى الدكتور مصطفى عبد الواحد أن معرفة ابن حزم بالنساء لم تكن

(١) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١ - الطوق: ١٦٤، ١٤١ - ١٤٣، ١٦٣ - ١٦٦.

(٢) انظر المصدر نفسه: ٢٥٣.

(٣) انظر المصدر نفسه: ١٦٦.

تشمل معرفة بدقائق الأمور. يقول: «فكان لا بد لابن حزم أن يشبع رغبته في المعرفة وأن يستوفي فكرته عن سلوكهن ليتمكن من الحكم وابداء الرأي»^(١). وفي الحقيقة فإن ابن حزم لم يُلْغِ أنه يعلم كل الدقائق والتفاصيل بحيث لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وعلمها من أمورهن، لكنه ادعى أنه اعلم من غيره بهن فلا يكاد يرقى إلى مستوى علمه بهن أحد، ومن كان كذلك فله كل الحق في اصدار الحكم عليهن ومع ذلك فلا يُفْتَرَض أن تكون سائر احكامه عليهن منزهة تماماً، لكن نحن مع احكامه حتى يثبت لنا أن بعضها ليس كما قال. ومما هو جدير بالذكر أن سوء الظن الذي نما في نفسه تجاههن كان مبنياً على مشاهداته لأنماط من سلوكهن. فاحكامه كانت تعتمد الخبرة والمشاهدة والمعرفة الدقيقة في الوقت الذي أصدر كثير من السابقين احكامهم عليهن رجماً بالغيب واعتماداً على مجرد الظن. فإذا كانت احكام ابن حزم في مجال الغريزة تتصف بالصرامة وعدم التردد فإنه اعتاد أن يعطي مثل هذه الاحكام في قضايا فقهية وكلامية واجتماعية وغيرها، فهذا شيء اتصفت به احكامه حينما كان متيقناً تماماً، ذلك أن أدلته التي يبني عليها مثل هذه الاحكام تكون عنده في غاية الدقة لانسجامها مع الطرق العلمية وقد انصف المرأة ودافع عنها ورد على الاتهام الذي وجهه بعضهم إليها بأنها سبب المعصية، وأنها هي التي تقود الرجل وتحمل وحدها المسؤولية في ارتكاب الخطيئة. يقول ابن حزم: «وإني لأسمع كثيراً ممن يقول: الوفاء في قمع الشهوات في الرجال دون النساء، فأطيل العجب من ذلك، وإن لي قولاً لا احول عنه: الرجال والنساء في الجنوح الى هذين الشيئين سواء، وما رجل عرّضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم من مانع إلا وقع في شرك الشيطان واستهوته المعاصي واستفزه الحرص وتغوله الطمع، وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وامكنته، حتماً مقضياً، حكماً نافذاً لا محيد عنه البتة»^(٢).

وكشف ابن حزم من باب معرفته بخفايا أمور النساء أن للمرأة مكائد دقيقة، وتدابير غامضة من أجل لفت انتباه الرجال إليها، وايصال حبها الى

(١) دراسة الحب في الادب العربي ج ٢: ٢٧١.

(٢) رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق: ٢٦٩.

قلوبهم منها: افتعال حركات اثناء المشي، واتخاذ الزينة، والترتيب لايقاع المزاج واستشهد بآية من سورة النور هي قول الله تعالى: «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ»^(١) فيقول ابن حزم: «فلولا علم الله عز وجل بدقة إغماضهن في السعي لا يصل حبهن الى القلوب ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوى لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى، وهذا حدُّ التعرُّض فكيف بما دونه»^(٢).

ويرى بعضهم أن ابن حزم من خلال حديثه عن المرأة الاندلسية ومعرفة بها أصدر أحكاماً عامة على سائر النساء، ومن هنا كانت أحكامه تفتقر إلى الدقة. لكن ينبغي أن نتذكر أن المرأة إنسان له عواطفه ومشاعره ووسائله وأساليبه المتعلقة بهذه المشاعر والأحاسيس، ولا أحسن المرأة في الاندلس من حيث عواطفها المتعلقة بظاهرة الحب أو حتى غيرها تختلف عن مثيلاتها في البلدان الأخرى، فهذه أمور إنسانية تكاد تكون مشتركة بالنسبة للجميع ولا اظن ابن حزم تجاوز الصواب في أحكامه على المرأة من خلال تجارب ومشاهدات كانت قائمة فعلاً وساق الأدلة العقلية والنقلية فاثبت بها أحكامه. وذكر الدكتور عبد الكريم خليفة أن ابن حزم أعطى فكرة سيئة عن المرأة من خلال قصصه التي رواها عنها، واستدل لما ذكره بقول ابن حزم عن المرأة إنها تحدث حركة فاضلة كانت عنها بمعزل وتأتي بكلام زائد كانت في غنى عنه حين تشعر بوجود الرجل، وقد تظهر الزينة وتصطنع طريقة خاصة في المشي، وتنشيء المزاج وغير ذلك. ولكن حين ذكر ابن حزم هذا فإنه لم يخص حديثه عن المرأة في مثل هذه الأمور، فذكر أن الرجال يفعلون مثل ذلك أيضاً، فلماذا يغض النظر عن الذي قاله ابن حزم في الرجل ويذكر ما قاله في المرأة مع أنه ساوى بينهما^(٣).

وأثار بعض الباحثين مسألة صمت ابن حزم عن ذكر أمه ولا سيما أنه كتب رسالة في أمهات الخلفاء، وقالوا: إنه ربما يرجع ذلك إلى ما طبع عليه ابن حزم

(١) سورة النور: الآية: ٢٦.

(٢) رسائل ابن حزم الاندلسي ج ١ - الطوق: ٢٧١، ٢٧٢.

(٣) انظر ابن حزم الاندلسي، حياته وأدبه: ٢١٣، ٢١٤.

من غيره شديدة بسبب نشأته بين جواري القصر أو إلى أمر آخر. واعتقد أن صفات الأنفة وعزة النفس والغيرة وما كان يعرفه ابن حزم من أسرار النساء كلها مجتمعة ربما تكون هي التي دعت به إلى ذلك^(١).

(١) انظر ابن حزم الاندلسي، حياته وأدبه: ٢١١.

الفصل الثاني

ظاهرة الحب بين الطُّوق والزَّهرة

الفصل الثاني

ظاهرة الحب بين الطوق والزهرة

أ. تعريف بكتاب الزهرة

ب. الحب بين الطوق والزهرة

أولاً، تعريف بكتاب "الزهرة" لابن داود.

جعل ابن داود كتاب الزهرة مئة باب، فالخمسون الأولى قصرها على الهوى، طرقه، واحكامه، وما جاء من اشعار للعرب تناسب كل باب منها، ولم يقتصر على مجرد ايرادها، بل حللها ونقدها ووضع قوانين للعشاق من خلال تعليقه على موضوعاتها. أما الخمسون الباقية من المئة فقد جعلها لأفانين الشعر الأخرى مبتدئاً فيها بتعظيم أمر الله عز وجل^(١). وكان ابن داود قد وجه هذه الرسالة الى حبيب له من الذكور يدعى محمد بن جامع الصيدلاني^(٢). وهو يشبه في هذا ابن حزم حين وجه رسالته الى صديق أجابه فيها عن سؤاله.

وربما يكون ابتداء ابن داود كتابه بالغزل نوعاً من السير على طرق السابقين من الشعراء ممن كانوا يفتتحون قصائدهم بالغزل، حتى اذا فرغ ابن داود من الغزل لم يقدم على تعظيم أمر الله شيئاً فجعله الباب الواحد والخمسين مباشرة بعد انتهائه من الأشعار المقولة في الهوى. ويعلل الدكتور مصطفى عبد الواحد ذلك الترتيب بقوله: «لقد أراد ابن داود من ذلك الترتيب الذي قسم فيه كتابه الزهرة الى قسمين: خمسين باباً في أمر الهوى، وخمسين في تعظيم أمر الله عز وجل، واستعراض ما قيل في رسوله صلوات الله عليه وآله بيته وصحابته، وما الى ذلك من الحكمة والموعظة وكريم الأخلاق. لقد أراد أن ينجو من مأخذ يتوجه اليه من المحافظين والمتعصبين، فقد كانت الكتابة في العشق وإفراد الكتب لدراسته في ذلك الزمان عملاً لا يليق بأولي الفضل والوقار من الفقهاء والمحدثين

(١) الزهرة ج ١ - المقدمة: ٤١ - ٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧ - ٢٩.

كابن داود^(١). غير أن هذا النهج لم يكن شائعاً ولا متعارفاً عليه بأن تبتدىء الكتب بالحديث عن الهوى، فلم تنطل هذه الحيلة، ولم تجد قبولاً لدى المعارضين.

وخص ابن داود كل باب من الخمسين الأولى بمئة بيت من الشعر، ولم يكن هذا إلا قليلاً من كثير كان مازال مخزوناً في ذاكرته، ويرى ابن داود أن الحب غير محظور في الشريعة، وأنه يستطيع أن يقيم أدلة كثيرة على ذلك من الكتاب والسنة، ومن أخبار الأنبياء السابقين والأولياء الصالحين، لكنه يحتفظ بها لنفسه ولا يذيعها على الناس كي لا يسيء فهمها العوام ويؤولوها بشكل غير مقبول^(٢). ويبين ابن داود أن العشق حال خاصة لا عامة، وأن الشوق لا يعرفه إلا من يكابده، فالعشاق اصحاب طباع وأرواح مستعدة للتألف، ولا يعذرهم إلا من كان في مثل حالهم^(٣). ولهذا يبتعد ابن داود - في معالجة مثل هذا الأمر - عن أسلوب استخدام الأدلة والبراهين والمحااجة والفلسفة الجافة.

ومما يلفت الانتباه أن عناوانات هذه الأبواب جاءت مسجوعة على شكل أمثال أدبية، من خلال ذلك يستطيع ابن داود أن يرينا قدرته على صياغة نثر فني^(٤). ولقد تدرج في ترتيب الأبواب بحسب نمو العاطفة وما يطرأ أثناء ذلك حتى بلغ النهاية وختمها بالوفاء بعد الموت، فمن الفراق والهجر وغلبة الشوق الى الوفاء بعدها. ثم وصف بعد ذلك الهوى وبين أسبابه وذكر الأحوال العارضة بعد استحكامه^(٥).

ويمتاز كتاب «الزهرة» بالترابط والتكامل والتناسق، وفيه وحدة موضوعية أيضاً. ولم ترد في «الزهرة» إلا القليل من الأخبار الأدبية. هذا هو

(١) دراسة الحب في الادب العربي ج ١: ٥٦.

(٢) انظر الزهرة ج ١ - المقدمة: ٤١.

(٣) المصدر نفسه: ٤١.

(٤) انظر دراسة الحب في الادب العربي ج ١: ٦٣.

(٥) انظر الزهرة ج ١ - المقدمة: ٤١، ٤٢.

المنهج الذي ارتضاه ابن داود، علماً بأنه ليس ملزماً باتباع منهج معين في دراسة الحب، واختار ابن داود الأشعار الملائمة لكل باب بحسب موضوع ذلك الباب المبين في تلك الامثال المسجوعة، ولا يكتفي بإيراد الشعر بل يعلق على معناه تعليقاً موجزاً ومن خلاله أحياناً يصدر احكاماً نقدية، فيوازن بين شعر قيل في معنى وشعر آخر قيل في المعنى نفسه، وينظر كذلك في أي تلك الأشعار كان أقرب الى اصابة هدفه الذي رمى اليه.

ولم يعرّف ابن داود العشق تعريفاً محدداً، ولعله كان يريد بذلك أن يتجنب الخلافات بين الأدباء والفلاسفة في ذلك، لكنه ذكر اتجاهات ثلاثة في فهم العشق وهي: الاتجاه الاسلامي، والاتجاه الفلسفي والاتجاه الصوفي^(١). ومن اسباب الوقوع في العشق عن ابن داود إدامة النظر، وقد يقع عن طريق السماع، ففي الباب الأول من كتاب الزهرة يقول: «من كثرت لحظاته دامت حسراته»، واستشهد لوقوع العشق عن طريق السماع بما رواه عن أبي العباس أحمد بن يحيى:

إذا هُنْ ساقطنَ الأحاديثَ للفتى سقوطَ حصي المَرْجانِ من سلكِ ناظمِ
رَمَيْنَ فَأَنْفَذْنَ القلوبَ ولا ترى دماً مائراً إلا جوى في الحَيَازِمِ^(٢)

وما رواه عن القطامي قائلاً: «إنه أحسن ما قيل في معناه»:

وفي الخُذورِ غَمَامَاتُ بَرَقْنَ لَنَا حتى تصيّدنَا من كُلِّ مُصْطَادِ
يَقْتُلُنَا بِحَدِيثٍ لَيْسَ يَعْلَمُهُ مَنْ يَتَّقِينَ وَلَا مَكْتُومُهُ بِسَارِ
فَهُنَّ يُبْدِينَ من قولٍ يُصْبِنُ بِهِ مواقعَ الماءِ من ذي الغُلَّةِ الصَّادِي^(٣)

وعلى الاتجاه الاسلامي استشهد ابن داود بالحديث الذي روته عائشة عن النبي ﷺ «الأرواحُ جنودٌ مجنّدة، فما تعارفَ منها ائتلف وما تناكرَ منها اختلف»^(٤). كما أنه أورد لطرفة بيتين يتفقان مع الاتجاه الاسلامي في المعنى العام وهما قوله:

(١) انظر دراسة الحب في الادب العربي ج ١: ٦٦.

(٢) الزهرة ج ١: ٤٩.

(٣) الزهرة ج ١: ٥٣.

(٤) المصدر نفسه : ٥٣.

تعارفُ أرواحُ الرجال إذا التقوا فمنهم عدوٌّ يُتَّقَى وخليـلٌ
وإنَّ امرأً لم يعفُ يوماً فكاهاةً ولو لم يردَّ سوءاً بها لجهولٌ^(١)
والشعراء الذين تأثروا بالاسلام من العذريين كانوا يعدون الحب قدراً لا يملكون لا
هُم ولا أحبابهم عنه محيداً. وهذه المعاني واضحة ومبثوثة في اشعار قيس بن
الملّوح، وقيس بن ذريح وكثير عزة وجميل بن معمر وغيرهم. واستشهد ابن داود
بقول بعض الشعراء:

إنَّ المحبةَ امرها عَجَبٌ تلقى عليك، ومالها سَبَبٌ^(٢)
وبقول آخر:

قضى الله يا سمراءُ لك الهوى بشيء فلم أُمْنَع ولم أعطه قصداً
وكلُّ أسيرٍ غير من قد ملكته مُرَجِّى لقتلٍ أو لنعماءٍ أو مُفدى^(٣)
وهناك تفسيرات فلسفية يونانية نقلها ابن داود أن الله - جلُّ شأنه - خلق كلَّ
روح مدوَّرة الشكل ثم شطرها الى شطرين جعل في كل جسد منهما شطراً، وكل
جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الآخر المشطور من النصف الذي معه هو، كان
بينهما عشق للمناسبة^(٤). وكان قبل هذا قد عزز فكرة الاختلاف بين الأرواح
المتعارفة والأرواح المتناكرة بالحديث الذي روته عائشة وذكرناه سابقاً^(٥).

وحين تحدث ابن داود عن التفسير الطبّي للعشق عقَّب عليه بما يُشعرُ بموافقته
عليه أو ميله نحوه فقال: «وإن كان الأمر يجري على ما ذكر فإنَّ زوال المكروه عمَّن
هذه حاله لا سبيل اليه بتدبير آدميين، ولا شفاء له إلا بلطف يقع له من رب
العالمين، وذلك أن المكروه العارض من سبب قائم منفرد بنفسه يتهيأ التَّلَطُّفُ في
إزالته بإزالة سببه. فإذا وقع الشيطان وكلُّ واحد منهما علة لصاحبه لم يكن الى

(١) انظر الزهرة ج ١: ٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ٥٤.

(٣) المصدر نفسه: ٥٤، ٥٥.

(٤) الزهرة ج ١: ٥٣، ٥٤.

(٥) المصدر نفسه: ٥٣.

زوال واحد منهما سبيل. فإذا كانت السوداء سبباً لاتصال الفكر، وكان اتصال الفكر سبباً لاحتراق الدم والصفراء وقلبها الى تقوية السوداء، كلما قُوِيَتْ قُوَت الفكر، والفكر كلما قوي قُوَى السوداء، وهذا هو الداء الذي يعجز عن معالجته الاطباء»^(١). يقول الدكتور مصطفى عبد الواحد: «والحق أن هذا التعليل الطبّي السائد في عصر ابن داود لوقوع العشق أجدر الآراء بالاعتبار، فهو يصدق كل الصّدق حين يحكم على العشق في بدايته بأنه طمع يتولّد في القلب؛ فإن الهوى لا يتجه إلا الى ما فيه مطمع ولا يتولد إلا بالطمع في القرب ورجاء بلوغ الأمل»^(٢).

وأما عرضه للاتجاه الصوفي في تفسير العشق فكان بايجاز، وفيه ما يدل على عدم رضاه عن هذا التفسير. ولا استبعد أن يكون لتبني ابن داود للمذهب الظاهري أثر في ذلك ولا سيّما أن الفرق كبير بين الصوفية والظاهرية في تعليل الأمور. ولخص ابن داود رأيهم في أن الله ابتلى عباده بالهوى كي يتعرفوا الى حقيقة طاعة المحب لمحبوبه فينتبهون بذلك الى اطاعة الله وتجنب معصيته. وفي الحقيقة فإن للصوفية في الحب الالهي كتباً كثيرة، واصطلاحات لا يعرفها غيرهم، ولبعضهم دواوين شعر كابن الفارض الذي يسمونه (سلطان العاشقين). وقالت الصوفية الكثير من النثر والشعر في الوجد والحب، وما تزال كتبهم تحتفظ بالكثير، ولا شك أن الصوفية لا ينكرون أن الحب قدر من الله، حسب الرؤية الاسلامية العامة لكنهم هم يتميزون بنظرتهم الخاصة ورؤيتهم المستمدة من افكارهم^(٣).

والعشق غالباً ما يكون مكتوماً، فهو عاطفة انسانية لا بد من حذرثا عندما تتوافر اسبابها لفريق معين من الناس. والاسلام أعطى احكاماً شرعية فيها اجابات عن مشكلات الحياة والكون والانسان، وانشغال المسلمين في الجهاد ونشر الاسلام لا يعني أن ظاهرة العشق كانت معدومة في النفس الإنسانية^(٤).

(١) انظر الزهرة ج ١: ٥٦.

(٢) دراسة الحب في الأدب العربي ج ١: ٧١.

(٣) قد كتب زميلنا أمين عودة رسالته الماجستير في التصوف فمن اراد المزيد عنهم يمكنه الرجوع اليها.

(٤) انظر دراسة الحب في الأدب العربي ج ١: ٧٤.

ويرى ابن داود أن هناك أداباً لا بد من مراعاتها للإبقاء على الود، وهي تستمد من القيم السائدة في المجتمع الاسلامي. يقول ابن داود: «ولو لم تكن عفة المتحابين عن اللذات وتحاميهما ما يُنكر في عرف كافة الناس محرماً في الشرائع ولا مُستقبحاً في الطبائع لكان الواجب على كُل واحد منهما تركه ابقاءً لودّه عند صاحبه وابقاءً على ود صاحبه عنده»^(١).

أما الشعر الذي يستشهد به ابن داود فمعظمه يتأثر بروح الاسلام العامة في النهي عن الهوى فهناك آيات قرآنية واحاديث نبوية جاءت تنهى عن الهوى أو عن اتباع الهوى منها قوله تعالى: «وإما من خلفه مقام ربه ونهضت النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى»^(٢) وقوله سبحانه: «ولا تتبع الهوى فيضالجه عن سبيل الله»^(٣)، وقوله تعالى: «ولمن خاف مقام ربه جنتان»^(٤). لكن الاسلام دين يُسر لا يضيق صدره باللمم والصغائر حين تُجتنب الكبائر. وما دام الاسلام يدمو الى التعفف، والشعر الذي رواه ابن داود هو من شعر الاعراب الذين لم يعرفوا شيئاً عن اليونان ولا عن فلسفتهم، فذلك ينفي نفياً قاطعاً أن يكون هذا اللون من الحب العذري عند العرب متأثراً بما كان عند افلاطون أو غيره من فلاسفة اليونان، بل هو ابن البيئة العربية، نبع منها وتأثر بعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها، ثم كان تأثره وتوجيهه فيما بعد بتعاليم الاسلام. واستشهد ابن داود للعفاف والتزامه في الحب بأشعار كثيرة متنوعة منها ما روي عن الأصمعي أنه قال: بينا أنا أطوف بالبيت اذا أنا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول:

لن يقبل الله من معشوقة عملاً يوماً وواوئها غضبان مهجوراً
وكيف يأجرها في قتل عاشقها لكن عاشقها في ذاك مأجوراً

قال: فقلت لها: يرحمك الله! أفي مثل هذا الموضع تُنشدين هذا؟ فقالت: إليك عني يا عراقى لا رَهَقَكَ الحب! فقلت لها: وما الحب؟ فقالت: هيهات! أجل والله عن

(١) الزهرة ج: ١١٧.

(٢) سورة النازعات: الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٣) سورة ص: الآية: ٢٦.

(٤) سورة الرحمن: الآية: ٤٦.

أن يحصى وخفي أن يرى، فهو كامن ككمون النار في حجرها، إن قدحته ورى وإن تركته توارى^(١). كما استشهد بقول العباس بن الأحنف:

أتأذنون: لصب في زيارتكُم
لا يضمّر سوء إن طال الجلوسُ به
وأبيات لعمر بن أبي ربيعة يقول فيها:

نظرتُ إليها بالمحصَّب من منى
فقلتُ أشمسُ أم مصابيح بيعة
بعيدة مهوى القرط إما لنوفل
طلبن الصبي حتى إذا ما أصبته
ولي نظراً لولا التخرُّج عارم
بدت لك خلف السجف أم أنت حالم
أبوها وإما عبدُ شمس وهاشم
نزعن وهنُ المُسلمات الكرائم

واشعاراً أخرى أوردها لتشهد على التزام العفاف في الحب^(٢). مما يعني أن ذلك الشعر كان يصدر عن العقيدة الإسلامية، ويلتزم بأداب الإسلام وقيمه، يعكس جانباً من التراث الأصيل، وإنه لا تأثير للفلسفة اليونانية عليه. ولقد أورد ابن داود بعض الروايات بين فيها أن العفاف هو من عادات العرب والخروج على مثل تلك العادات كان مما يلحق العار بالمحبين^(٣). وأما العفاف الذي لم يكن عن محض

استطاعة وحرية فلم يكن له عندهم أي اعتبار. بل ذاك العفاف الذي كان يتحكم فيه الحب بنفسه، ويمتلك فيه إرادته. وحين كان ابن داود يُصدر أحكاماً نقدية على الأشعار ويفاضل بينها كان يركّز كثيراً على معنى العفاف فيها. يقول الدكتور مصطفى عبد الواحد: « فجرى في نقده على مذهبه في العفاف ولم يصنع صنيع النقاد الذين لا يهتمون إلا بروعة التصوير وإجادة التعبير، فهو ناقد يؤمن بالقيم الخلقية ويجعلها معايير للحكم على الشعر ومقاييس لحسنه أو قبحه »^(٤).

لم يكن كتاب الزهرة مجرد كتاب حُشدت فيه أشعار عاطفية، لكنّه اشتمل على قواعد للعشق كما كانت عند العرب قَبْلَ الإسلام وبعده، وقَبْلَ عصر ابن داود وبعده.

(١) الزهرة ج ١: ١١٨.

(٢) انظر المصدر نفسه - الباب الثامن: ١١٧ الى نهاية الباب.

(٣) الزهرة ج ١: ١٢٤، ١٢٥.

(٤) دراسة الحب في الأدب العربي ج ١: ٨٢.

ولقد رأى ابن داود أن المحبين على درجات متفاوتة من حيث شدة تمكّن العاطفة من نفوسهم، وأن هذه العاطفة تنمو تدريجياً مع الزمن، وهي تتطور من النظر والسماع إلى الاستحسان ثم تكون المودة حتى إذا قويت صارت محبة، ثم تقوى المحبة فتصير خلة، ثم تقوى الخلة فتوجب الهوى، ثم تقوى الحال فيصير عشقاً، ثم يقوى العشق فيصير تقيماً، ثم يزداد التقيّم فيصير وكهاً، ويشترج ويفسّر ابن داود ويبيّن الوضع في كلّ حال ويسوق شعراً يطابق هذه المراتب التي وضعها^(١). ويبدو أن ابن داود قد توصل إلى نتائج من خلال تجاربه في الحب وتجاربه غيره كذلك، ومنها أن من غلب عليه الجبن مال إلى الكتمان ومن طمع في حسن المجازاة بالعدل والوصال مال إلى الإعلان، والتوسط لمن أطاق ذلك هو الأحسن فيظهر بعضاً ويخفي بعضاً ثم يورد أشعاراً في هذا المعنى^(٢).

ويرى ابن داود ضرورة التذلل والاستكانة للوصول إلى قلب المحبوب^(٣). وهذا سبيل العذريين الذي ساروا عليه من قبل وهناك أشعار رواها ابن داود أبي فيها أصحابها الهوان في الهوى وتمسكوا بعزة أنفسهم، فأكثروا من التضجر ولوم أحبائهم لكثرة الصدود وطول الهجر والفراق، فلم يرض ابن داود عن مسلكهم، فالذي لا يخضع لسلطان الهوى لا يكون محموداً في نظر ابن داود^(٤). كما أن الذي يوفق في حبه بحيث يتمكن من الوصال ينبغي أن لا يسرف فيه حتى لا يملّه المحبوب فيقول: « الحزم لمن سمع له بالوصال ألا يرسل نفسه كلّ الإرسال في ذلك، فإن ذلك ربّما دعا المحبوب إلى الملل وإن كان مقيماً على رعاية الحال »^(٥). ويروي بيتين في هذا المعنى يقول عنهما: وقد أحسن الذي يقول :

(١) انظر الزهرة ج ١: ٥٨ - إلى نهاية الباب الثاني.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٠ - ١٠٤.

(٣) انظر الزهرة ج ١: ١٠٠ - ١٠٤.

(٤) المصدر نفسه: ١٠٥، ١٠٦.

(٥) المصدر نفسه: ١١٦.

تكونُ إذا دامت إلى الهجرِ مسلّكا

ويُسألُ بالأيدي إذا هو أمسكا^(١)

عليك بإقلالِ الزيارة إنْهـا

فإنني رأيتُ القطرَ يُسأمُ دائماً

ويُحذّرُ ابن داود ذلك الذي أنعم الله عليه بالوصال من أن يتصرف تصرّفاً قد يؤدي به إلى المهالك؛ بأن يقوم بنشر ما في محبوبته من صفات حميدة عن طريق امتداحه لها أمام الآخرين مما قد يغريهم بمشاركته فيها، ويروي أشعاراً يؤيّدُ بها أقواله^(٢). ومنهما ما أعجب ابن داود ومنها ما لم يعجبه لأن فيها تجاوزاً لحدود الأخلاق أو لأنها لم تراعى أحكام الدين والمروءة^(٣).

وفي «الزُهرة» عرض ابن داود أحوال العشق ومراتبه مُبيناً أن الغيرة الشديدة ناجمة عن زيادة حرصٍ وضمّن بالمحبوب خشية مشاركة الآخرين له فيه فجعل عنوان الباب العاشر من أبواب الكتاب «سوء الظن من شِدَّةِ الضن» واستشهد بأشعار في هذا المعنى، وروى قصّة ديك الجن الذي قتل زوجته، وكان يُحبّها حباً عظيماً فدفعه إلى الإقدام على ما أقدم عليه سوء ظن ناتج من شِدَّةِ غيرته عليها^(٤). وربما كانت هذه الحالة من الحالات النادرة جداً، بيد أن المرأة إن أنست من الرجال خيانة انقلبت رِقَّتْها إلى عُنْف، وإن تَمَكَّنَتْ من قتله قَتَلَتْه.

والعشق العذري عند ابن داود لا يحفلُ إلا ببقاء المحبّة دون أن يُعوّل كثيراً على الوصال أو النوال، ويلفت الانتباه إلى أن القناعة كانت دائماً السمة البارزة في تعاملهم مع محبوبتهم، فلو رأى محبوبه مرّة في العام أو أقل من ذلك بحيث يراه مرّة كلّ عامين أو ثلاثة أو أربعة لكان ذلك كافياً. ومنهم من تنازل عن اللقاء واكتفى بالاقامة على الوفاء. ومنهم من قنع بالتحية على قِلَّتْها. ومنهم من بالغ كثيراً فاكتفى بمجرد العلم بسلامة محبوبه^(٥).

(١) انظر الزهرة ج ١: ١١٦.

(٢) المصدر نفسه: الباب التاسع: ١٢٦، ١٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٨، ١٢٩.

(٤) المصدر نفسه: الباب العاشر: ١٣٧، ١٤٠.

(٥) المصدر نفسه: الباب الثاني عشر: ١٥٥ - ١٦٣.

وتكلم في كتابه على الحجاب وجعله قسمين رئيسين: اضطراريًا، واختياريًا. أما الاختياري فهو على أنواع: منه ما هو امتحان للمحب من المحبوب، ومنه ما هو بسبب الخوف من الرقيب، ومنه ما يكون استدعاءً للزيادة في الحال، ومنه ما هو إشفاق من العذال، واسوأ أنواعه ما كان ناجماً عن الضجر والملل. واستشهد لهذه الأنواع بما يناسبها من الأشعار. وتباينت مواقف الشعراء من الحجاب، فمنهم من رضي به لأنه من المحبوب، ومنهم من صعب عليه الحجاب وأحزنه، ومنهم من رفضه جملةً وتفصيلاً، ومنهم من أظهر الضجر والملل، ويغلب على المحبين الشكوى من الحجاب، والتبرُّم من تجنُّب أحبابهم لهم في جميع الحالات، وكان ابن داود قد روى أشعاراً تناسب كل تلك الأحوال^(١).

ويخبرنا ابن داود في كتابه أن إرسال المحبين تحيات لأحبابهم أمر مألوف، فتارةً يرسلون بها مع الريح وطوراً يرسلون بها مع أخلائهم ورُفقاءهم، ومنهم من أرسل بها مع الحجيج واعتبر وصول سلامه من تمام حجه، وآخرون أرسلوا بها مع الجن. غير أن ابن داود الذي كان يفضل الكتمان رأى في هذه الوسائل ما يعلن عن الحب ويظهره وفي هذا الإعلان في نظر ابن داود ما يتنافى مع منهج الحب العذري وأدابه التي افترض أن لا يحيد الحب عنها. وكان يستشهد بأشعار لكل ما ذكره من تلك الوسائل في التعبير عن عواطف المحبين^(٢). لكن كيف يطلب ابن داود أن يجعل الكتمان منهجاً عاماً في العذرية، وكثير من المحبين تغلبه أحواله فلا يملك قدرة على الكتمان، وهو معذور ولا يمكننا أن نطالبه بما ليس في وسعه.

وتحدث ابن داود كذلك عن الوشاية والوشاة فقال: إن المتحابين ربما تظاهرا بالجفاء للتمويه على الرقباء. والمتيمون في رأيه لا يقبلون الوشاية، لكن أهل الوكـة يقبلون ما لا يسمعون وما يسمعون لغلبة الظن عليهم، وأكد كلامه بأشعار رواها في هذا الموضوع^(٣). ويتابع ابن داود مُحدثاً عن العتاب وعنده أنه لا بد من الإبقاء على ما بين المتحابين، وأنه لا يخلو أحد من هفوات أو نقائص في

(١) الزهرة ج ١ الباب الثالث عشر: ١٦٤ - ١٧٢.

(٢) المصدر نفسه الباب الرابع عشر: ١٧٣ - ١٧٩.

(٣) المصدر نفسه: الباب الخامس عشر: ١٨١ - ١٨٩.

سلوكه، والأحسن عنده ترك المعاتبة في الأشياء الصغيرة إلا إذا قدر أن ذلك التصرف يُعرض السمعة للقليل والقال، فلا بد عندئذ من التنبيه على ذلك، وأن السكوت في مثل هذا غير محمود، ثم أورد أشعاراً تنطبق على هذه المعاني^(١).

ويتحدث ابن داود عن الهجر أيضاً ويجعله في أربعة: «هجر ملال، وهجر دلال، وهجر مكافأة على الذنوب، وهجر يوجب البغض المتمكن في القلوب»^(٢). ويبين أن الهجر المنبعث أشد من الموت. وقد كثرت شكوى الشعراء من الهجر وما يعانون بسببه، فأورد أشعاراً تنطبق على هذه الحالات، وأشعاراً أخرى أيد بها وجهة نظره^(٣). وتحدث عن الغدر فذكر أن منهم من تشتد لهجته عند الهجر على الغدر، وأن فيهم من يقيم على العهد حتى بعد الغدر، واستشهد بأشعار بدا في بعضها حب الانتقام والمجاهرة بالإساءة. وطبيعي أن لا يؤيد ابن داود هذه الأشعار لأنها شاذة في نظره عن مذهب الحب العذري، وأما من يلحق به الغدر فهو غير ملوم إذا سلا^(٤).

ويتحدث ابن داود كذلك عن الفراق وما يتركه من أثر في نفوس المحبين ويخبرنا أن المحبين يُشفقون ويجزعون أشد الجزع خوفاً من وقوع الفراق، حتى إذا ما وقع انهمرت دموعهم بغزارة دونما توقف. أما إذا وقع الفراق باختيار منهم فإنه لا يلبث أن يفضي بهم إلى الأسف، ويروي ابن داود في هذا الباب روايات هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع مثل قصة عقيله بنت الضحاک مع ابن عمها عمرو إذ ماتت على الفور حين رجح عندها خبر موته. أما المؤثون فيرى ابن داود أن الخوف من الغدر يشغلهم عن الحذر من الفراق أو الهجر. ويتهم ابن داود ليلي الأخيلية بأنها لم تتفاعل مع الهوى تفاعلاً كافياً، ويتبين ذلك من خلال مراثيها لتوبة بعد وفاته. وهذا الحكم ربما كان فيه مبالغة منه لأن قوة التحمل ليست

(١) الزهرة ج ١ الباب السابع عشر: ١٩٥ - ٢٠٢، والباب السادس عشر: ١٨٩ - ١٩٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢٠٣.

(٣) المصدر نفسه: الباب الثامن عشر: ٢٠٣ - ٢٠٩.

(٤) المصدر نفسه الباب العشرون: ٢١٧ - ٢٢٤.

بدرجة واحدة عند الجميع، والموت والحياة كما قال الدكتور مصطفى عبد الواحد^(١) ليسا داخلين في إرادة الإنسان. ثم روى أشعاراً أُيد بها أقواله في الفراق وتحليله لأحوال العاشقين في ذلك الشعر^(٢). وفي حديثه عن الفراق قارن بينه وبين الهجر فقال: بعضهم يرى الفراق أعظم من الهجر وآخرون يفضلون الفراق على الهجر. وهو ينحاز إلى الرأي الثاني ويقول إن الحب أحياناً يُعرض ليمتحن صبر المحبوب أو يريد أن يجدد حاله عنده. والهجر بسبب الخيانة والغدر هو أصعب أنواع الهجر. ويذهب الفراق بالغيب ويفغر الذنوب، ولكن يشتد فيه الحنين، ويورث النفس ألماً دائماً، واستشهد لهذا بأشعار كثيرة^(٣).

وكتاب «الزهرة» كتاب أكثره شعر، والنثر فيه قليل بالقياس إلى الشعر وكان هذا النثر يحتوي غالباً على تحليل موجز لذلك الشعر. كما يحتوي أحكاماً نقدية لابن داود من خلال ذلك التحليل، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الموضوعات العاطفية سواء أكانت شعراً أم نثراً يصعب إخضاعها لمقاييس نقدية دقيقة. وكان تركيز ابن داود في نقده على المعنى على حساب اللفظ، ويحاول تعرف مقدار بلوغ الشاعر لغرضه الذي قال الشعر فيه، ويوازن بين الشعراء أحياناً من هذه الناحية. كما يصدر أحكاماً على الشعراء حينما يعجزون عن التصوير المؤثر في نفس السامع بحيث لا يفي بالغرض فينعت شعرهم بأنه قبيح، وإذا كان الأمر على عكس ما ذكرنا فيقول إن هذا من أجود أنواع الشعر، أو من أحسن ما قيل في هذا، بعدما ينتهي من التحليل لشعر الشعراء بشكل عام موجز، وبكلمات معدودات، لكنها معبرة، ثم يدخل من خلال ذلك كله للبحث في حال الشاعر وعاطفته، ويعتذر عن تجاوزات بعض العشاق لحدود الآداب المتعارف عليها في قواعد العشق العذري حسب رأي ابن داود.

(١) دراسة الحب في الأدب العربي ج ١: ١٣٦.

(٢) الزهرة ج ١: الباب الحادي والعشرون: ٢٢٥ - ٢٣٣.

(٣) المصدر نفسه: الأبواب: ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨.

أما الانتقام والحق فليس من أخلاق المتحابين، بل مُستنكران مُستبشعان في العشق. ويرفض ابن داود الإعلان عن الضجر والياس، ويبالغ في محاسبة الشعراء على رعاية شؤون العذرية، ويحترز كثيراً من أن تشوب جلال هذه العاطفة شائبة فهو إذ يروي قول جميل بن معمر:

وَيَقْلَنَ إِنَّكَ قَدْ رَضَيْتَ بِبَاطِلٍ	منها فهل لك في اجتذاب الباطل
وَلِبَاطِلٍ مِمَّنْ أَحَبُّ حَدِيثُهُ	أشهى إليّ من البغيض الباذل
وَلَرُبُّ عَارِضَةٍ عَلَيْنَا وَصَلَّهَا	بالجدّ تخلطه بقول الهازل
فَأَجَبْتُهَا بِالْقَوْلِ بَعْدَ تَسْتُرٍ	حُبِّي بثينة عن وصالك شاغلي
لَوْ كَانَ فِي قَلْبِي كَقَدَرِ قَلَامَةٍ	فضل وصالك أو أتتك رسائلي

لا يعجبه قول جميل «لو كان في قلبي كقدر قلام» لأن ذلك يدل على أنه لو تهيأ خلاص شيء من حبه في يدها لصرفه إلى غيرها، وهذه حال لا ترضي أهل الوفاء ولا يستعملها أهل الصفاء^(١). ويبدو هنا أنه يقسو على جميل في محاسبته على هذا المعنى الذي فهمه ابن داود، علماً بأنّ جميلاً كما هو واضح من السياق العام للآبيات كان يبين لها أنه لا مجال في قلبه لواحدة أخرى غير بثينة البتّة، وأنّ من أكبر الدلائل على عظيم حبه وإخلاصه لها أنه يتقبل منها الباطل.

ويفضل أحياناً وضع كلمة بدلاً من أخرى في الشعر حتى تكون ملائمة للمعنى.

فيقول: وقال آخر:

وكيف يحب القلب مَنْ لا يُحِبُّهُ	بلى قد تريد النفس من لا يريدُها
وكنْتُ إذا ما زرتُ ليلَى بأرضِها	أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدُها
تحلُّ أحقادِي إذا ما لقيتُها	وتُنمي بلا جُرمٍ عليّ حقودُها

فيقول ابن داود: أمّا قوله «تحلُّ أحقادِي إذا ما لقيتُها» فهو كلام صحيح ولو أبدل اسم الحقْد بغيره كان أحسن، لأنّ الحقْد لا يتولّد إلا عن موجدة، فتخفى في النفس، ويظهر غيرها ويرصد صاحبها بالمكافأة عنها. وهذا كلّهُ محال بين المتحابين بين

(١) الزهرة ج ١: الباب الثاني عشر: ١٥٥، ١٥٦.

باب الجد والهزل جميعاً^(١). كما يُلحظ أنه يركّز من خلال تحليلاته للشعر على أمور جزئية في اللغة ربّما وقفت حائلاً دون تحقيق خيال الشعراء. «لأنّ هذه مصادرة لخيال الشعراء، وتحليل عقلي لخواطر موحية لا يناسبها الاستقصاء والتتبع للوجوه، ولا ندري هل تأثر ابن داود في نقده الأدبي بِمَلَكتِهِ الفقهية وطريقته الجدلية، أم أنّ هذا التحليل يرجع إلى دقة حسّ ورقة وجدانه، فإنّه من الإسراف في التشدد والتحيف في النقد»^(٢). وهو يستنكر الوصف الحسّي لأنّه لا يتفق مع مبادئ العذرية التي وضعها فنراه يورد أبياتاً للبحثري:

لي خليلٍ قد لَجَّ في الهجرِ جدّاً	وأعادَ الصدودَ منه وأبـدى
ذو فنونٍ يُريكُ في كلّ يومٍ	خُلُقاً مِنْ جَفَانِهِ مُسْتَجِدّاً
يتأبى منعاً ويُنعِمُ بِدَفْنِ سَعَا	ويدنو وصلّاً ويُبْعِدُ مَسْداً
اغتندي راضياً وقد بَتَّ غضباً	نَ وأُمسي مولى وأصبح عبداً
أتراني مُستبدلاً بك ما عشت	تُ بديلاً أو واجداً منك نـداً
حاشَ لله أنتَ أفتنّ الحـا	ظاً وأحلى شكلاً وأملحُ قـداً

يقول ابن داود مُعلّقاً على ذلك: «أمّا هذا الشعر فمن أضعف شيءٍ أعرف. وذلك أنّ صاحبه إذا استحسن صورةً وقدأ فمتى تغيّر حسنّها، أو رأى ما هو أحسن في عينه منه اتّبَعَهُ وتركها»^(٣). ويشيد بقول امرئ القيس:

تَنَوَّرَتْهَا مِنْ أَذْرَعَاتِ وَأَهْلُهَا	بِثَرِبٍ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرُ عـالٍ
نظرتُ إليها والنجومُ كأنّها	مَصَابِيحُ رَهَبَانٍ تُشَبُّ لِقْفـالٍ
فقالَت سبّاكَ اللهُ إِنَّكَ فاضحي	أَلستَ تَرى السُّمَارَ والنَّاسَ أحوالي

فيعدُّ البيت الأول في غاية الحسن والكمال حيث يقول: «أمّا البيت الأول فهو نهاية لا يَتَهَيَّأ مجاوزتها، بل لا نتمكّن مقاربتها، لأنّه ذكر أنّه تَخَيَّلَ نارها من المدينة وهو بالشام، فساقه الشوق إليها من أجل ذلك»^(٤). كما يَسْتَحْدِثُ قَوْلًا

(١) الزهرة ج ١ - الباب الثالث: ٧٩ ، ٨٠.

(٢) انظر دراسة الحب في الأدب العربي ج ١: ١٦٤ ، ١٦٥.

(٣) الزهرة ج ١ - الباب الثاني والعشرون: ٢٢٤.

(٤) المصدر نفسه: الباب الثاني والعشرون: ٢٢٣.

لبعض العقيليين يقول فيه:

لقد هاج لي شوقاً وما كنت سالياً
حمامةً وادٍ هيَّجتُ بعدَ هجعةٍ
كأنَّ حمامَ الواديينِ ودومةٍ
محلاة طوقٍ ليس تخش انقضابه
دعت فوق ساقٍ دعوةً وتناولت
بها صحراً على بديلٍ لتَحْذِرا

فيقول: «وإنَّ هذا لِمَنْ نفيس الكلام قد اشتمل على لفظٍ فصيح ومعنى صحيح. ألا ترى إلى احترازه من أن يتوهَّم سامع كلامه أن الحمام أعاد له الشوق بعد سلوته، أو ردَّ عليه ما كان ذهب من صبوته؟ ثم ما عقَّب به بعد ذلك من الجزالة السهلة والرقَّة المستحسنَّة»^(١).

ويبدو أن ابن داود كان متأثراً في بعض أحكامه التي أصدرها على الشعراء بطريقة القدماء في النقد من حيث اعتماده الذوق الشخصي أحياناً، والتركيز على المعنى، وذكر اللفظ أحياناً، غير أنه في تركيزه على ضرورة مراعاة مبادئ لا بُدَّ من مراعاتها حسب رأيه، ومحاولته تحليل بعض الحالات النفسية فيعذر بعض العشاق وينفذ إلى عواطفهم، فهو يعدُّ في هذه الناحية سابقاً قياساً إلى عصره^(٢).

ومما يلفت الانتباه أنه على الرغم من إirاده اشعاراً متنوعةً للجاهليين وصدر الاسلام ومن العصر الأموي فإنَّ عصره الذي عاش فيه قد حظي بنصيب الأسد من تلك الأشعار، ذلك أن ابن داود ربَّما أحسَّ أن هذا العصر هو أكثر عصر يمكن للشعراء أن ينفوا قواعد العذرية حقها، حيث شعر الغزل في الجاهلية وصدر الاسلام كان معظمه غزلاً حسياً، وهذا النوع لا يرضي ابن داود ولا يتفق مع رؤيته للعشق أو قياساً إلى أولئك الذين كان يصفهم بأنهم من (أهل التمام)، وهو لم ينسَ نفسه حين أورد أشعاراً يرجَّح أنها له، لكنَّه لم يردَّ أن يكشف عن نفسه، لحساسية هذا الأمر له كفقيه ومُحدِّث مشهور فأوردها تحت عبارة (وقال بعض أهل هذا العصر). ولو أنعمنا النظر في أشعاره، وما كتبه منها في العشق، وفي تعليقاته

(١) انظر الزهرة ج ١ الباب الثالث والعشرون: ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) انظر دراسة الحب في الأدب العربي ج ١: ١٧٢ - ١٧٨.

على الأشعار في الأبواب المختلفة لقلنا إنه كان على درجة عالية من التمكن في معرفة شؤون الهوى، وأن شعره رفيع في مستواه ينم عن معرفة واسعة وتجربة صادقة ورقة في المشاعر.

أما الأخبار التي ذكرها في كتابة فقد جعل منها كذلك شواهد تؤكد صحة أرائه في الموضوعات التي تناولها بالدرس والتحليل، وبعض هذه الأخبار كان عن أشخاص مشهورين وبعضها الآخر كان عن مغمورين، وهو حين كان يوردها كان يتعامل معها كما يتعامل مع الشعر فيتناولها بالدرس والتحليل والنقد مؤيداً لبعضها ومعارضاً لبعضها الآخر.

ثانياً: الحب بين «الطوق» و «الزهرة»

جعل ابن حزم رسالة «الطوق» في تسعة وعشرين باباً ما عدا المقدمة إذ خصها بالبواب الأول وجعل البابين الأخيرين فيها قبح المعصية وفضل التعفف. ويرى الدكتور احسان عباس أن رسالة الطوق متكاملة، وقد روعي الترتيب المنطقي في أبوابها، وأما الزهرة لابن داود فيبدو كل باب فيها مستقلاً عن الآخر^(١). رأى ابن حزم أن العفة في الحب شيء أساسي حتى لا يقع المحب فيما حرم الله، وهو متأثر بشريعة الإسلام وملتزم به فكان فيما قاله عن العفة في الحب منطلقاً من ذلك، وإذا كان ابن حزم متأثراً باطلاعه على كتاب «الزهرة» فإن العفة التي نادى بها ابن حزم كان قد نادى بها ابن داود من قبله، وكان حكمه على درجة جودة الأشعار التي رواها في كتابه بحسب التزام تلك الأشعار بالعفاف في الحب. ويتفق ابن حزم وابن داود في أن العشق قدر من الله، وأن لا اختيار لهم في هذا^(٢). لكن ابن داود في دعوته إلى العفة لم يسلك سبيل الوعظ الذي سلكه ابن حزم في «طوق الحمامة» وعمد ابن داود إلى بيان أن العفة من مستلزمات العشق فقال: «ولو لم تكن عفة المتحابين عن الأنداس وتحاميهما ما ينكر في عرف كافة الناس محرماً في الشرائع، ولا مستقبحاً في الطبائع لكان الواجب على كل واحد منهما

(١) انظر رسالة ابن حزم الأندلسي ج ١: ٥٦، ٥٧.

(٢) انظر المصدر نفسه: ١٢٩، ١٤٤، ١٤٥، وانظر الزهرة ج ١: الباب الثاني: ٥٨.

تركه إبقاء لودّه عند صاحبه وإبقاء على ودّ صاحبه عنده»^(١).

ويتميّز «الطوق» باعتماده بشكل رئيس على المشاهدات والخبرات والتجارب الذاتية، وأخبار الثقات ورواياتهم، فهو كتاب يعرض صورة الحب في الواقع الاجتماعي الأندلسي، وصاحبه يتفرد بمنهج مستقل ينبذ التقليد، ويستشهد للحوادث بأشعاره هو ولا ينقل أشعار غيره إلا ما لا يكاد يُذكر من أبيات قليلة اقتضاها المقام، كما أنه لا ينقل الروايات القديمة.

وإذا كان ابن حزم وابن داود ينتميان لمذهب واحد، ويعالجان في كتابيهما موضوعاً واحداً، فإنهما يختلفان في طريقة البحث والتحليل، وفي أن ابن داود اعتمد أشعار الآخرين والروايات القديمة عن العشيق، وأحياناً أورد شعره هو، وكان الغالب على «الزّهرة» الشعر بينما كان الغالب على «الطوق»، النثر. وكان ابن حزم يوظف علومه الأخرى من خلال إيراد أخبار الحب ودراسته وتحليله لبعض جوانبه^(٢). ويرى الدكتور عبد الكريم خليفة أن ابن حزم لا بد أن يكون قد اطلع على «الزّهرة» وسائر الكتب الأخرى التي عارضته وتأثر بها. وأشار الدكتور احسان عباس إلى مسألة التأثر هذه في مقدمة الرسائل^(٣). ولا يصعب علينا أن نتلمّس مثل هذا التأثر حين ندرس كتابي «الزّهرة» و«الطوق» دراسة فاحصة دقيقة، ولو أن المنهج الذي نهجه ابن حزم في كتابه كان نهجاً مستقلاً ومبتعداً عن التقليد، غير أن هناك أوجه شبه يلتقي فيها ابن حزم وابن داود لا يمكن تجاهلها.

وفي اشتراط العفاف الذي يتفقان عليه يروي ابن داود حديثاً للنبي ﷺ صحّحه فريق وأعله فريق آخر، وهو ما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ «مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَكَتَمَهُ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(٤). وعلى الرغم من اختلاف المُحدثين حول هذا الحديث فإن معناه صحيح مُتَّفَقٌ مع وجه نظر الإسلام.

(١) انظر الزهرة ج ١: ١١٧.

(٢) انظر دراسة الحب في الأدب العربي ج ٢: ٢٠٠ - ٢٠٩.

(٣) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١: ٤٥ - ٥٢.

(٤) المقاصد الحسنة - للسخاوي «محمد بن عبد الرحمن السخاوي»: ٤١٩ - مكتبة الخانجي - ١٩٥٦ وقد ورد هذا الحديث فيه

بلفظ «مَنْ عَشِقَ فَكَتَمَ فَمَاتَ شَهِيداً».

وقد أورد الدكتور إحسان عباس - ممّا جاء في الزهرة حول الهجر - قول ابن داود: «والهجر الذي يتولّد عن الثقة بالوداد خير من الوصال الذي يقع من غير اعتماد»^(١). وجاء ما يشبه هذا في «الطوق»^(٢)، فيقول ابن حزم: «ثمّ هجر يوجبهُ التّدلّ وهو الذّ من كثير من الوصال، ولذلك لا يكون إلّا عن ثقة كلّ من المتحابين بصاحبه»^(٣). وحين يذكر ابن داود أنواع الهجر يقول: «والهجر على أربعة أضرب: هجر ملال وهجر دلال وهجر مكافأة على الذنوب وهجر يوجبهُ البغض المتّكّن في القلوب، فأما هجر الدلال فهو الذّ من كثير الوصال وأما هجر الملّال فيبطلهُ مرّة الأيام والليال، إمّا بنأي الدار وإمّا بطول الاهتجار»^(٤). وابن حزم يجعل أنواع الهجر سبعة من بينها الأربعة التي ذكرها ابن داود. وبهذا يستدلّ الدكتور إحسان عباس على تأثر ابن حزم بابن داود في هذه التقسيمات، وعلى وجاهة ذلك الاستدلال ومنطقيته فإنّ ابن حزم قد جعلها سبعة^(٥)، ولم يكتفِ بتلك الأربعة التي ذكرها ابن داود^(٦) ممّا يقوّي احتمال أن يكون ابن حزم قد عرف بعض تلك التقسيمات من مصادر أخرى غير «الزهرة».

ويذكر ابن داود السلو الناتج عن الغدر^(٧) فيراه غير معيب لأنّ السالي إنّما ينفر عمّن خالف شكله، ولكنّ عليه ألاّ يشنّع بهذا الغدر على المحبوب أو يذيعه عنه، ويعود إلى الموضوع فيرى أنّ الصبر أحياناً على الغدر يقع لدى بعض المحبّين، لأنّ حالة الحبّ قد تجاوزت حدّ العشق إلى الرضى بكُلّ ما يفعله المحبوب ولو كان غدرًا^(٨). أي أنّ ابن داود لا يقطع برأي وإثما يجيز حدوث السلو أو بقاء الحبّ مع

(١) الزهرة ج ١: ٩٩.

(٢) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١ - الطوق: ١٩٢.

(٣) الزهرة ج ١: ٢٠٣.

(٤) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١: الطوق: ١٩١ - ٢٠٤.

(٥) الزهرة ج ١: ٢٠٣.

(٦) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١ - المقدمة: ٤٧، وانظر الزهرة ج ١: ٢١٧.

(٧) انظر الزهرة ج ١: ٢٤٣، ٢٤٨.

الصَّبْر^(١)؛ ويتعرض ابن حزم أيضاً لظاهرة السُّلُو الناتج عن الغدر فيرى أن السالي غير ملوم، ويحدد موقفه على نحو أدق إذ يلوم من يصبر عليه، فلا يُغضي عليه ولا يحتّمه كريمة^(٢) فيقول: «ولا أدعى إلى السُّلُو عند الحرّ النفس وذي الحفيظة والسُّري السجاي من الغدر، فما يصبر عليه إلا دنيء المروءة خسيس الهمة ساقط الأنفة»^(٣)؛ ومع مخالفته هنا لابن داود، فإن الذي مَهَّد له الانطلاق في هذه المخالفة هو ابن داود نفسه. غير أن القول: إن ابن داود هو الذي مَهَّد لابن حزم في هذه المخالفة لا يزيد على كونه مجرد احتمال. كما يتحدث ابن داود وابن حزم كلاهما عن أسباب السُّلُو^(٤). فإذا هذه الأسباب عندهما تتقارب في المعنى^(٥). وهما حين يتحدثان عن القنوع يتشابهان أيضاً خاصة حين نرى ابن داود يعلّق أثناء عرضه لنماذج شعرية فيقول: «وكلُّ هذه الأحوال ناقصة عن حدّ التمام»^(٦)، ويقول ابن حزم كلاماً قريباً من هذا الذي ذكره ابن داود بعد ذكره لمراتب القنوع وجعلها سبباً، يقول: «وللشعراء فنٌّ من القنوع أرادوا فيه إظهار غرضهم وإبانه اقتدارهم على المعاني الغامضة والمرامي البعيدة فمنهم من قنع بأن السماء تُظله هو ومحبيه الخ»^(٧). كما يتقاربان أيضاً حين يجعل ابن داود الحجاب نوعين: اضطرارياً واختيارياً، ومن الاختياري امتحان المحب للمحبيب والخوف عليه من الرقيب^(٨)، وابن حزم في حديثه عن البين يرى أن منه بيناً يتعمده المحب بعداً عن

(١) انظر الزهرة ج ١: ٢٤٢، ٢٤٨.

(٢) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١: المقدمة: ٤٧.

(٣) المصدر نفسه: الطوق: ٢٥٣، ٢٥٤.

(٤) الزهرة ج ١: ٢٣٤، ٢٥١.

(٥) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١: ٢٤٦، وانظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١: المقدمة: ٤٧.

(٦) الزهرة ج ١: ١٦٢، وانظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١ - المقدمة: ٤٨.

(٧) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١: ٢٢٧ - ٢٢٩، وانظر المصدر نفسه - المقدمة: ٤٨.

(٨) الزهرة ج ١: ١٦٤.

قول الوُشاة^(١). وهما في حديثهما عن الوداع يتقاربان كذلك، وإن كان ابن حزم يزيد على ابن داود بإعطائه رأيه فيه. يقول ابن داود مُخبراً إن بعض المحبين يُسارع للوداع «لأن فيه عناقاً وانتظار اعتناق يوم التلاق»^(٢). وأمّا ابن حزم فيقول: «ولهذا تَمَنَّى بعض الشعراء البَيْن، ومدحوا يوم النوى، وما ذاك بِحَسَنٍ، ولا صواب ولا بالأصيل من الراي فما يفي سرور ساعة بحُزن ساعات الخ»^(٣). ويكاد يتشابه ابن حزم وابن داود حين يتحدثان عن حفظ السرّ والإذاعة فيقول ابن داود في مَنْ يَكْتُمُ سِرَّهُ مع شدة ما يتحمّل بأنّه: «شديد الإبقاء على إلفه»^(٤). وابن حزم يقول: «ربّما كان سبب الكتمان إبقاء المُحبّ على محبوبه»^(٥). وهما يتشابهان أيضاً في اتفاقهما على أنّ غلبة الوجد تدفع للبوح بالسرّ^(٦).

ويتفق ابن حزم وابن داود في حكمهما على الحبّ من أوّل نظرة فيقول ابن داود: «إنّ ما وقع من الهوى بأوّل نظر كان بقاؤه يسيراً، وأمّا ما كان استحساناً ينمو على مرّ الأيام فإنّه لا يزول - إذا قدّر له ذلك - إلّا ببطء»^(٧). وأمّا ابن حزم فيقول: «وإني لأطيل العجب من كلّ مَنْ يدّعي أنّه يحبّ من نظرة واحدة، ولا أكاد أصدّقه، ولا أجعل حُبّه إلّا ضرباً من الشهوة»^(٨). وابن حزم يقول أيضاً «فما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً»^(٩). وهذا القول يشبه قول ابن داود: «كلّ شيء في هذا

(١) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١: ٢١٦، وانظر المصدر نفسه - المقدمة: ٤٨.

(٢) الزهرة ج ١: ٢٥٩ - ٢٦١.

(٣) رسائل ابن حزم ج ١: ٢٢١، وانظر المصدر نفسه - المقدمة: ٤٩.

(٤) الزهرة ج ١: ٤٠٩.

(٥) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١: ١٤٦.

(٦) المصدر نفسه: ١٤٩، والزهرة ج ١: ٤٠٩، وانظر رسائل ابن حزم ج ١ - المقدمة: ٤٩.

(٧) الزهرة ج ١: ٤٣٦، ٤٤٢.

(٨) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١: ١٢٠، ١٢٤، ١٢٥.

(٩) المصدر نفسه - المقدمة: ٤٩، ٥٠.

العالم إن اعتبرته وجدت ما ارتقى إلى هذه الغاية القصوى بغير ترتيب انحط انحطاطاً طويلاً^(١)، وكذلك قول ابن داود فيمن أحب من أول نظرة: «فكلما كان ارتقاؤهم فيها سريعاً كان انحطاطهم قريباً»^(٢). وهما يختلفان في مسألة الوفاء والغدر من كل من المحب والمحبوب^(٣)، غير أن ابن حزم يتفق معه في مسألة الوفاء مع اليأس^(٤). ويتفقان أيضاً في أن كلا منهما في مقدمة كتابه قد توجه برسائلته إلى صديق حميم^(٥). واختلفا في ذوي القدر العالي من الأنبياء والصالحين من حيث ذكر أخبار من وقع في الحب منهم، فحين رأى ابن داود الامتناع عن ذكر أخبارهم للعامّة فإن ابن حزم كان قد ذكر أخبار عدد من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين والفقهاء في هذا الشأن^(٦).

(١) الزهر ج ١: ٤٣٦، ٤٤٢.

(٢) المصدر نفسه: ٤٣٦، ٤٤٢.

(٣) الزهرة ج ١: ٤٧٢.

(٤) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١: ٢٠٨، ٢٠٩.

(٥) الزهرة ج ١: المقدمة: ٣٩ - ٤١.

(٦) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١ - المقدمة: ٨٤ - ٨٧، ٩٠ - ٩٢.